الإمام الشافعى

حياته... فقهه

إعداد
بكر محمد إبراهيم

الناشـر
مركز الراية للنشر والإعلام

- مركز الراية هو دار نشر حرة مستقلة تتبنى قضايا جادة وهادفة
- وقد تم تأسيس هذا المركز من وحى إحساسنا بدور الكلمة المطبوعة فى التعبير عن قضايانا المصيرية، وكشف أوجه القصور، وتصحيح الأوضاع المقلوبة. أو المفاهيم الخاطئة، وإثراء حياتنا الفكرية والثقافية.
- ورغم أن المركز لا يزال فى بداياته الأولى إلا أن حسن استقبال القارئ العربى من المحيط إلى الخليج لمطبوعاتنا جعلنا ندرك حجم المسئولية الملقاة على عاتقنا. ونحاول قدر جهدنا تقديم كل جديد وجاد وهادف.

الناشر

أحمد فكرى

اسم الكتاب	الإمام الشافعى.. حياته.. فقهه
اسم المؤلف	بكر محمد إبراهيم
المراجعه اللغويه	المؤلف
رقم الايداع	٢٠٠٥/٤٨٤٣
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-354-078-2
جمع الكترونى	فورإتش م: ٦٦٧٤٣٣٥/ ٠١٠
فكرة الكتاب	أحمد فكرى
الإشراف العام	كريم أحمد فكرى

الطبعة الأولى

٢٠٠٧

مركز الراية للنشر والإعلام

الإدارة والتوزيع : ٢٠ ميدان الحسين ـ مكتبة فكرى
القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٥٩٢٦٢١٩
البريد الإلكترونى :
e- mail: alraya 93 @ hotmail.Com
e- mail : alraya 93 @ Yahoo.Com
فاكس : ٠٠٢٠٢٧٨٧٠٩٠٦

الإمام الشافعي
حياته.. فقهه

كلمة الناشر

هذا الكتاب

هذا الكتاب يتناول سيرة علم من أكابر أعلام الأئمة وعالم ملأ الأرض علماً وكان يتصف بالخلق الكريم والتواضع والشجاعة والصدق وعلو الهمة.

فهو الإمام العالم القدوة القرشى الهاشمى ناصر السنة وقامع البدعه مبتكر علم أصول الفقة المحدث الفقهية اللغوى الشاعر التقى الورع.

تتلمذ على يد جهابذة العلماء ولاسيما الإمام مالك ومن تلامذته الإمام أحمد.

أقام بالعراق ثم بمصر وبها مات ودفن وكان مولده على الأرجح بمدينة غزة وكانت أمه رحمها الله تشجعه على طلب العلم بعد وفاة ابيه وتآمر عليه المتآمرون وحسده الحساد وحيكت له الدسائس وترك لنا علماً واسعا وكتبا قيمة وأشعاراً جليلة رحمه الله رحمة واسعة.

الناشر

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ.

الإمام الشافعى هُوَ (مُحَمَّدٌ) بنُ إدريسِ الشَّافعى، يَلْتقى ﷺ مَعَ سَيِّدنا رسُول الله ﷺ، ف عَبْدِ مَناف وأُمُّ (الشَّافعىّ) هىَ (فَاطمَةُ) بِنْتُ عَبْدِ الله الأَزْدِيَّة نَسْبَةً إلى قَبِيلَةِ الأزْدِ الَّتى قَالَ فِى شأنِها رَسُولُ الله ﷺ.

(الأزْدُ أُسدُ الله فى الأرْضِ، يُريدُ النَّاسُ أنْ يَضعَـوهُم، ويأبَى اللهُ إلاَّ أنْ يرْفعَهَم، وليأتِينَّ علَى النَّاسِ زَمَانٌ يقُولُ الرَّجُلُ يا لَيتَنى كُنتُ أزْدِيًّا، ويالَيْتَ أُمّى كانَت أزْدِيَّة)..

وُلدَ بـ (غزَّةَ) سَنَـةَ (١٥٠هـ) ـ وهىَ السَّنَةُ الَّتى (تُوفِّىَ فيـها الإمَامُ أبُو حَنيـفَة) رَضِى اللهُ عَنْهُما، ثُمَّ حُمِلَ إلَى (مكَّةَ المُكرَّمَة) وهُوَ ابنُ سَنَتَيْنِ، فَنَشأَ فِى أكْنافها، وتَفقَّهَ عَلَى خيرَةِ عُلَمَائها، ثُمَّ قَـدمَ (المَدينَةَ المُنَوَّرَة) فَلزِمَ (الإمَامَ مَلِكاً) ﷺ، وقَرأَ عَلَيْه المُوطَّأَ حفظاً، وهُوَ ابنُ ثَلاث عَشْـرَةَ سَنَة، فأعْجبَ الإمامُ (مَـالكٌ) بقراءَته وقَالَ لَهُ: (اتَّقِ اللهَ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَكَ شَأن)، ثُمَّ رَحَلَ إلى (اليَمَنِ) حَينَ تَوَلَّى عَمُّـهُ القضاءَ بها واشتَهَرَ بها، ثُمَّ رَحَلَ إلى (العرَاق)، وَجَـدَّ فى الاشْتغَـال بالعلْمِ، ونَشْرِ علْمِ الحَـديث، ونَصرِ السُّنَّة واستخرَاجِ الأحكَامِ منْها، ورَجَعَ كثيرٌ منَ العُلَـماء عَنْ مَذاهب كانوا عَلَيْها إلى مَذْهَبه، ثُمَّ خَرَجَ إلى (مصرَ) فِى آواخرِ سَنَة (١٩٩ هـ) وصَنَّفَ كُتُبَهُ الجَديدَةَ بها، وتَوَافَدَ النَّاسُ إليْـه منْ سَائرِ الأقطار، قـالَ الرَّبيعُ بنُ سُلَيْـمان: رَأيْتُ عَلَ بابِ دَارِ الإمـامِ الشَّافـعىِّ سَبْعَمَائَة راحلَة تَطْلُبُ سَمَاعَ كُتُبه ﷺ..

وكانَ مَعَ ذَلِكَ يَقـول: إذا صَحَّ الحَديثُ فَهُوَ مَذْهَبـى، وكانَ يَقُولُ: وددَتُ أَنّى إذا

نَاظَرْتُ أَحَداً، أَنْ يُظْهِـرَ اللهُ تَعالَى الحَقَّ عَلَى يَدَيْهِ، وكانَ يَقُول: مَنْ أَرادَ الآخِـرَةَ فَعَلَيْهِ الإخْلاصُ فِى العِلْمِ، وكَـانَ يَقُول: أَظْلَمُ الظَّالمِـينَ لِنَفْسِهِ مَنْ تَواضَـعَ لِمَن لا يُكْرِمُهُ، ورَغِبَ فِى مَوَدَّةِ مَنْ لا يَنْفَعُهُ، وقَبِلَ مَدْحَ مَنْ لا يَعْرِفُهُ..

وكانَ يَقُول: مَنْ لَمْ تُعِزَّهُ التَّقْوَى فَلا عِزَّ لَهُ، وقَالَ فِى حَقِّ أُسْتَاذِهِ الإمَامِ (مَالِك):

(إذا ذُكِرَ العُلَمَاءُ فَمالِكٌ النَّجْمُ، ومَا أَحَدٌ أَمَنُّ عَلَيَّ مِنْ مَالِكِ بن أَنَس).

وَقَالَ فِى حَقِّهِ الإمَامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبل) ﷺ:

(ما أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ الحَدِيثِ حَمَلَ مَحْبَرَةً، إلاَّ وللشَّافعِيِّ عَلَيْهِ مِنَّةٌ).

وهكذا ضَرَبَ الأئمَّةُ الأَرْبَعَـةُ (وهُمْ شُيُوخُ الأُمَّةِ الإسْلامِـيَّةِ) المَثَلَ الأَعْلَى فِى المَوَدَّةِ والتَّسَامُحِ ورَفْضِ العَصَبِيَّةِ والتَّزَمُّتِ، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الإمامَ (الشَّافعِيَّ) عِنْدَما زارَ قَبْرَ الإمامِ الأَعْظَمِ (أبى حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ) فى (بَغْدَاد) وصَلَّى هُوَ وتَلامِـذَتُهُ صَلاةَ الصُّبْحِ بجوَارِ القَبْرِ تَرَكَ (القُنُوتَ) وهُوَ أَسَاسِيٌّ فِى مَذْهَبِـهِ وهُوَ (الدُّعَاءُ المَأْثُورُ بَعْدَ القِيامِ مِن رُكُـوعِ الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ) وعِنْدَما سَـأَلَهُ تَلامِذَتُهُ: أَطَرَأَ تَغَيُّرٌ فِى مَذْهَبِكَ؟ قَـالَ ﷺ بَلْ هُوَ إجْلالٌ وتَقْدِيرٌ لِمَصْـذْهَبِ مَنْ نَحْنُ فِي رِحابِهِ، يَقْصِدُ الإمامَ (أَبا حَنِيفَةَ النُّعْمان).

وأَقَامَ الإمَامُ الشَّافعيُّ بـ (مِصْرَ) أَرْبَعَ سِنِينَ وَنَيِّفـاً، انْتَشَرَ فِيها مَذْهَبُهُ، وَعَظُمَ شَأْنُهُ عِنْدَ المَصْـرِيِّينَ، وكَثُرَ تَلامِـيذُهُ، وكانَتْ الدُّرُوسُ والعُلُومُ الَّتى يُلْقِـيها (الشَّـافعِيُّ) عَلَى تَلامِيذِه كثِـيرَةً مُتَعَدِّدَةً، فَقَدْ كـانَ (الشَّافعِيُّ) يَجْلِسُ فِى حَلَقَتِهِ إذا صَلَّى الفَجْـرَ، فيأتيه أَهْلُ القُرْآنِ، فَإذا طَلَعَت الشَّمْسُ قَـامُوا، وجَاءَ أَهْلُ الحَدِيثِ فَيَسْأَلُونَهُ تَفْـسِيرَهُ ومَعْنَاه، فَإذا ارْتَفَـعَتِ الشَّمْسُ قَـامُوا، فَـاسْتَوَت الحَـلَقَةُ لِلْمُذاكَـرَةِ والنَّظَرِ، فَإذا ارْتَفَـعَ الضُّحى تَفَرَّقُوا، وجَاءَ أَهْلُ العَرُوضِ والنَّحْوِ والشعْرِ فَلا يَزَالُونَ إلى قُرْبِ انْتِصافِ النَّهار.

وقَدْ تُوفِّيَ ﷺ بـ (مِصْرَ) لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بَعْدَ المَغْرِبِ سَنَةَ (٢٠٤ هـ)..

ويُعْتَبَرُ ضَرِيحُ الإمامِ الشَّافعِيِّ أَكْبَـرَ الأضْرِحَةِ فِى (مِصْرَ) عَلَى الإطْلاقِ، وأَقْدَمَ قُبَّةٍ خَشَبِيَّـةٍ بـ (مِصْرَ)، إذْ تَبْلُغ مَسَاحَةُ الـضَّرِيحِ (٤٠٠ مترٍ تَقْرِيباً) وارْتِفـاعُهُ (٢٩ متراً)، ومِنَ الطَّرِيفِ أَنَّ قُبَّـةَ الإمامِ الشَّافِـعى يَعلُوها سَفِـينَةٌ طُولُها ٢/١ ٢م،وَهِىَ تَرْمُزُ عَلَى أَنَّ

الإِمَامَ الشَافعِيَّ بَحْرُ العُلومِ والمَعارفِ، ويَحْمِلُ سَفِينَةَ النَّجاة لِلَّذى يَتَزَوَّدُ مِنْ هَذِه العُلومِ والمَعَارِفِ، ورَحِمَ اللهُ الإِمامَ (البُوصِيرى) الذى وصفها قائلا:

بِقُبَّـــةِ قَبْرِ (الشَّافِعِـــى) سَفِـــينَةٌ
رَسَتْ فِى بِنَـاءٍ مُـحْكَمٍ فَـوْقَ جَـلْمُـودِ
وَمُذْ غاصَ طُوفَانُ العُلُومِ بِـ (قَبْرِهِ) استَوَى
الفُلْكُ مِنْ ذَاكَ الـضَّـرِيحِ عَلَى الْجُـودِىِّ

والحمد لله أولاً وآخراً.

المؤلف

الفصل الأول

الإمام الشافعى

أم الشافعى

فى مكة

أقباله على التعليم

منهج التعليم

علم الرواية

الامام الشافعى

الشافعى هو ابو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

فهو عربى قرشى هاشمى مطلبى يلتقى مع الرسول ﷺ فى الجد الأعلى عبد مناف. وكان يطلق عليه: ابن عم رسول الله ﷺ ولكننا يجب أن نتنبه إلى أن هاشما المذكور فى سلسلة نسب الشافعى ليس هو هاشم جد النبى ﷺ ولكنه هاشم بن المطلب بن عبد مناف ـ أما هاشم جد النبى ﷺ فهو هاشم ابن عبد مناف، فهاشم جد النبى ﷺ هو عم هاشم جد الشافعى. والمطلب الوارد فى سلسلة نسب الشافعى هو شقيق هاشم جد النبى ﷺ.

وقد أورد الرواة قصة طريفة حول المطلب وهاشم، وعبد المطلب بن هاشم جديرة بالتسجيل، لنعرف فضل هذه الأسرة الهاشمية القرشية التى كان النبى ﷺ أزكى فروعها وأشرف نتاجها.

كان لعبد مناف بن قصى أربعة أولاد ذكور وهم: المطلب بن عبد مناف وهو أكبر أولاده، ولكل من هؤلاء الأربعة فضل على قريش.

فالمطلب هو الذى عقد الحلف لقريش من النجاشى فى تجارتها إلى أرضه وهاشم هو الذى عقد الحلف من هرقل قيصر الروم، ونوفل هو الذى عقد الحلف لقريش من كسرى ملك الفرس.

وإلى هذه الأحلاف يشير الشاعر فى مدحهم:

وفى رواية أن المطلب كان يؤلف الرحلة إلى اليمن، وعبد شمس كان يؤلف الرحلة إلى الحبشة، وهاشم كان يؤلف الرحلة إلى الشام، ونوفل كان يؤلف الرحلة إلى فارس، وإلى هذه الرحلات تشير سورة قريش

وكان هؤلاء الأربعة قد ورثوا عن أبيهم مآثر الجود والكرم والقيام بأمر الحجاج الذين هم ضيوف الله تعالى، يقومون برفادتهم وإكرامهم وإطعامهم وسقيهم وبرهم.

وكان هاشم بن عبد مناف كثير الرحلات، وذهب إلى المدينة فى إحدى رحلاته فتزوج سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار، وبنى بها فى المدينة ثم مضى فى رحلته إلى غزة حيث مات بها.

وقد علقت زوجته سلمى بولد، سمته شيبة، وبقى الولد عند أمه بالمدينة حتى شب، وأصبح غلاما. وإنما سمته شيبة لشيبة كانت برأسه ولد بها.

وقدم ثابت بن المنذر بن حرام، وهو أبو حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ مكة معتمرا ذات عام، والتقى بصديقه المطلب بن عبد مناف سيد قومه إذ ذاك، فقال له: لو رأيت ابن أخيك «شيبة» فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا، لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانا من أخواله، فيدخل مرماتيه[١] جميعا فى مثل راحتى هذه، ويقول كلما خسق[٢]: أنا ابن عمرو العلا.

وعمرو هو هاشم بن عبد مناف، وإنما سمى بهاشم، لأنه كان يهشم الخبز للحجيج ويصنع لهم الثريد يطعمهم به، وقد قال الشاعر فى ذلك يمدحه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مستنون عجاف[٣]

فقال المطلب: لا أمسى حتى أخرج إليه فأعود به.

فقال ثابت: ما أرى سلمى أمه ولا أخواله يدفعونه إليك، إنهم يضنون به وهو عزيز لديهم. وما عليك أن تدعه عند أخواله حتى يكون هو الذى يقدم عليك هاهنا

(١) مرماتيه: مثنى مرماة كمسحاة، وهى سهم صغير، أو سهم يتعلم به الرمى.

(٢) خسق: أصاب المرمى وغلب.

(٣) مستنون: أصابتهم السنة وهى الجدب والقحط.

راغبا فيك؟؟

فقال المطلب: يا أبا أوس مـا كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ونسبه وشرفه فى قومه ما قد علمت.

وخرج المطلب من فوره إلى المدينة، وكان اسمها يثرب ـ فورد المدينة فنزل فى ناحية، وجعل يسأل عن شيبة حتى وجده يرمى فى فتيان من أخواله فلما رآه عرف شبه أبيه «هاشم» فيه ففاضت عيناه، وضمه إليه وكساه حلة يمانية وأنشأ يقول:

عرفت شيبة والنجار قد حلفت　　　أبناؤها حوله بالنبل تنتضل

عرفت أجلاده منا وشيمته　　　ففاض منى عليه وابل سبل[1]

وحين سمعت سلمى «أم شيبة» بقدوم المطلب أرسلت إليه، فدعته إلى النزول عليها.

فأرسل إليها يقول: شأنى أخف من ذلك، ما أريد أن أحل عقدة حتى أقبض ابن أخى ببلده وقومه.

فعز عليها ذلك، وشق عليها أن تفارق ابنها الذى تربى فى حجرها وتعودت ألا يغيب عن عينيها وهو لا يعرف سوى أخواله، فقالت: ما أنا بمرسلته معك، وغلظت عليه فى القول، شأن كل امرأة فى موقفها.

ولكن المطلب قال لها: لا تفعلى، فإنى غير منصرف حتى أخرج به معى، ابن أخى قد بلغ، وهو غريب فى غير قومه، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا، والمقام ببلده خير له من المقام هاهنا، وهو ابنك حيث كان.

وعلمت سلمى صدق منطقه، وأدركت أن ابنها لابد أن ينال من شرف قومه الذى لا ينكره أحد من العرب، ومجدهم الذى يسير مسير الشمس، وعلمت مع ذلك أن المطلب غير مقصر فى طلب ابن أخيه ولابد أن يبلغ ذلك والحق معه، فاستنظرته ثلاثا لتجهز ابنها فى سفرة مع عمه.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ١١٧.

وقبل المطلب، وتحول إليهم فنزل عندهم فأقام ثلاثا. ثم احتمل «شيبة» وانطلقا جميعا وأنشأ يقول:

أبلغ بنى النجار إن جئتهم ... أنى منهم وابنهم والخميس

رأيتهم قوماً إذا جئتهم ... هووا لقائى وأحبوا حسى

وأردف المطلب ابن أخيه شيبة وراءه على راحلته ودخل به مكة ظهرا، فقالت قريش حين رأوا المطلب يردف خلفه غلاما: هذا عبد المطلب ظنوه أنه اشترى عبدا وأردفه وراءه.

فقال لهم المطلب: ويحكم هذا ابن أخى شيبة بن عمرو.

فلما رأوا شيبة وعرفوا أبيه فيه قالوا: إنه ابن عمرو حقا.

وغلب اللقب الذى أطلق على شيبة اسمه، فلم يعد يعرف إلا بعبد المطلب وظل المطلب قاذما بأمر الرفادة والسفاية وإكرام الحجيج، تلك المهمة التى كانت لهاشم قبله ومات وهو يقوم بها. وخرج المطلب إلى اليمن تاجر فمات بردمان وهو أحد المواضع فيها، فحزنت عليه قريش وكانت تلقبه بالفيض لسماحته وفضله، ورثاه مطرود بن كعب الخزاعى بقوله:

ثم الذجى الفضل والفياض مطلبا ... واستخرطى بعد فيضات بجمعات

أمسى برمعان عنا اليوم مغتربا ... يا لهف نفسى عليه بين أموات

وتولى عبد المطلب بعده السقاية والرفادة، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم من أمرهم، وشرف عبد المطلب فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم، وأكرمه الله بإكرامات أذاعت فضله وخلدت ذكره، فقد أعاد الله على يديه عين زمزم بعد أن كانت طمت وذهب أثرها وخفى خبرها، وولد خير البشر فيه وهو حى وهو الذى سماه محمدا ﷺ ليكون محمودا فى الأرض كما هو محمود فى السماء.. وكفله عدة سنوات وكان يتوسم فيه الخير وأنه سوف يكون له شأن وأى شأن... إلى هذه الدوحة الباذخة ينتمى الشافعى - رضي الله عنه.

وقد غلب عليه نسبه إلى جده شافع، فأصبح يطلق عليه الشافعى.

وشافع هذا صحابى جليل، عرف به ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة، فقال عنه:

«شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصى القرشى المطلبى، جد الشافعى.

لقى النبى ﷺ وهو مترعرع، وقد أسلم أبوه السائب يوم بدر»(١)

وترجم ابن الأثير للسائب أيضاً فقال عنه:

«السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، أبو شافع جد الشافعى، وأمه الشفاء بنت الأرقم بن نضلة بن هاشم بن عبد مناف وكان السائب يشبه النبى ﷺ.

روى الخطيب البغدادى عن القاضى أبى الطيب الطبرى أنه قال أسلم السائب يعنى بن عبيد جد الشافعى بعد يوم بدر، وكان صاحب راية بنى هاشم، وأسر ثم فدى نفسه، فقيل له: لو أسلمت قبل أن تفدى نفسك.

فقال: ما كنت أحرم المؤمنين طعما لهم.

وهى قصة تدل على مثاليته. وبأن فيه شنشنة بنى هاشم التى تدل على الوفاء والإيثار، وهو يدفع عن نفسه مع ذلك مظنة أن يكون قد أسلم فرارا من الفداء.

وقد كان بوسعه أن يعلن عن إسلامه فيفك أسره بدون فداء، ولكنه لم يفعل ذلك، ليكون إسلامه خالصا من كل شائبة، نقيا من كل منقصة وكونه صاحب الراية يوم بدر يدل على شجاعته وإقدامه.

والسائب أبو شافع هو الذى يحقق للشافعى النسبة الهاشمية وأنه من أهل البيت، لأن أمه جدها هاشم بن عبد مناف، فهو مطلبى من جهة أبيه هاشمى من جهة أمه.

وكان بين بنى هاشم وبنى المطلب تآلف وتحالف، فقد أوصى هاشم بن عبد مناف

(١) أسد الغابة ٢/ ١٠٥.

إلى أخيه المطلب بن عبد مناف فأصبح الأولاد يدا واحدة. كما أصبح بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف يدا واحدة[1].

أم الشافعى

واختلفت الأقوال فى أم الشافعى، وإن كانت قد اتفقت على أنها عربية. والاختلاف أنها إلى أى القبائل تنتمى.

يرى بعض العلماء أن أمه هى فاطمة بنت عبد الله المحصن بن الحسن المثنى ابن الحسن بن على بن أبى طالب.

ويرى بعضهم أنها بنت الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وهو بذلك يكون هاشمى النسب من جهة أبيه وأمه، والذين يرون ذلك يقولون: لا نعلم هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبى طالب والشافعى.

وإن كان هذا القول مبالغا فيه أو مجاوزا الحقيقة، لأن هناك من ولد لهاشميين كالخليفة الأمين، أبوه الرشيد هاشمى، وأمه زبيدة هاشمية.

إلا أن رواية أن أم الشافعى هاشمية رواية يعوزها التوثيق، والمشهور أن أمه تنتمى إلى قبيلة الأزد، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وقد روى النووى عند حديثه عن أم الشافعى أن الرسول ﷺ قال: «الأزد أسد الله فى الأرض، يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم وليأتين على الناس زمان يقول الرجل: يا ليتنى كنت أزديا، وياليت أمى كانت أزدية» كما روى حديثا موقوفا جاء فيه: الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار والأذان فى الحبشة، والأمانة فى الأزد»[2].

ولعل هذه الرواية الأخيرة هى الأصح، يشهد لها أن الشافعى حين قدم مصر رفض الإقامة إلا عند أخواله من الأزد.

وقد كانت هذه الأم على قدر من المعرفة والعلم ترك أثره فى الولد، وكثيرا ما

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١١٣.

(٢) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ١٩٣ وقال: رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة وصححه وحسنه.

تكون نجابة الولد من أثر التوجيه السديد والرعاية المحمودة، والحكمة التى تقول: «وراء كل عظيم امرأة» تصدق على الأم التى تأخذ بيد ابنها إلى طريق النجاح والكمال.

وإن المرأة التى تحسن تربية أولادها جديرة بأن يكرمها التاريخ ويضعها فى الإطار الصحيح، وقد اشتهرت نساء فى تاريخ الإسلام كانت شهرتهن بسبب نجابة أبنائهن الذين تخرجوا على أيديهن وسلكوا مدارج الكمال على أعينهن وقديما كان يطلق على فاطمة بنت الخرشب أم الكملة، التى سئلت عن أولادها أيهم أفضل فقالت: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

وحسن تربية الولد مهمة إسلامية، وهى مسئوليات المرأة التى ألقاها الإسلام على عاتقها حين جعلها راعية ومسئولة عن رعيتها، وأوجب عليها حسن التبغل لزوجها، ومن حسن التبعل أن تكون أمينة على رعاية أولادها من زوجها، وقد ذهبت أسماء بنت يزيد الأشهلية إلى النبى ﷺ تقول له: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الله قد بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا من ذلك الجهاد فى سبيل الله ـ عز وجل ـ وإن الرجل إذا خرج حاجا أومعتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم فى هذا الأجر والخير؟.

فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسنت فى مساءلتها فى أمر دينها من هذه؟».

فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبى ﷺ إليها فقال: «افهمى أيتها المرأة واعلمى من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله» فانصرفت المرأة وهى تهلل[١].

لقد وجه النبى ﷺ هذه المرأة إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة من معرفة لحق زوجها، ومعرفة حق الزوج تكون بحسن الطاعة له، وحسن الرعاية لأولاده، وحسن

(١) أسد الغابة ٧/ ١٩.

التوجيه لهم وتربيتهم تربية حسنة.

وكانت أم الشافعى من أولئك النساء اللاتى انتفعن بهذا الحديث وطبقته تطبيقا صادقا.

لقد صدقت الإخلاص لزوجها وقنعت معه بالحياة على شظفها.

وكان الزوج رجلا كادحا يضرب فى الإخلاص لزوجها وقنعت معه بالحياة على شظفها.

وكان الزوج رجلا كادحا يضرب فى الأرض طلبا للرزق، فعلى الرغم من أن موطنه مكة إلا أنه كان يسعى فى طلب الرزق فى كل مكان تبدو فيه بارقة الأمل، وسعى إلى غزة منتجعا وسعت زوجته معه، وهناك رزقه الله بولده الشافعى، قريبا من مثوى الجد الأعلى هاشم بن عبد مناف.

ولقد اختلف الرواة حول ذلك أيضاً.

فقال بعضهم لم تكن الولادة فى غزة، بل كانت فى عسقلان.

وقال بعضهم، بل كانت الولادة فى اليمن.

ولكن الأرجح أنه ولد بغزة ثم انتقل به إلى عسقلان، وكانت عسقلان غاصة بالقبائل اليمنية.

ولعل هذا من قبيل اللطف الذى يصاحب وقوع الأقدار، حتى قال الحكماء: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره.

وعلى أى فقد كانت أم الشافعى جديرة بأن تكون أمه، فقد نشأ الشافعى ولم يجد أمامه إلا هى، لقد مات أبوه صغيرا، وخشيت عليه أمه الضيعة فعادت إلى مكة.

وقد توسمت الأم فى ابنها الخير والذكاء والفطنة، فأسلمته إلى المعلمين على الرغم من شظف الحياة وقسوة العيش.

وكانت هذه الأم على درجة لا بأس بها من العلم، فى وقت كانت النساء ينلن

حظهن من الثقافة والفقهية، فالعصر قريب عهد بالنبوة والعلم يعرف طريقه إلى قلوب الرجال والنساء، ومما يدل على أن هذه المرأة على صلة بالعلم ما يحدث به الرواة أنها طُلبت أمام قاضى مكة للإدلاء بشهادة مع مرأة أخرى، وأراد القاضى أن يفرق بيها وبين الشاهدة الأخرى فقالت له أم الشافعى: ليس هذا لك لأن الله تعالى يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

فرجع القاضى عن رأيه(١).

عادت الأم بابنها إلى مكة محافظة على شرف نسبه القرشى، كان عمره سنتين حين عادت به. ولعل غربة الأسرة كانت قد طالت بعض الوقت فى غزة التى استوطنها الوالد مؤقتا، لأن مورد رزقه كان بها. وقد انقطع المورد بوفاة الأب، فأصبح لا مناص أمام الأم من أن تعود إلى الموطن الأصلى «مكة لينشأ طفلها اليتيم بين أهله، وتعوضه بذلك عن فقد أبيه، حتى لا يجتمع عليه همان هم اليتم وهم الغربة.

فى مكة

السلم التعليمى الإسلامى يبدأ بحفظ القرآن الكريم، وهو أنجح طريق سلك حتى الآن فى التعلم.

وقد نجح آباؤنا فى التعلم لأنهم حفظوا القرآن الكريم صغارا فيما كان يسمى بالكتاب، وعلى يد شيوخ متخصصين كانوا يحفظون القرآن الكريم بأحكامه وكانت المدارس المصرية قديما تعنى بذلك تماما حيث كان التلميذ فى المدرسة الأولية ـ وسنواتها كانت أربعا ـ يحفظ القرآن الكريم فيها، فى كل سنة يحفظ ربع القرآن وقد حفظ الكثيرون القرآن الكريم فى المدرسة الأولية فى مدرسة القرية، وأنشأت وزارة المعارف نظاما اسمه قسم الحفاظ مهمته أن يشرف على تحفيظ التلاميذ القرآن الكريم فى المدرسة بواسطة شيخ متخصص تعينه لذلك.

ولم يعق حفظ القرآن التلاميذ عن الدروس الأخرى، بل ربما كان معينا لهم على التفوق فيها، وقد خرجت المدارس الأولية القديمة كما خرج كتاب القرية عباقرة حملوا

(١) الإمام الشافعى ـ عبد الحليم الجندى ص ٢٨.

لواء التثقيف والتربية والتنوير فى بلادنا، وأى عظيم من عظماء الدولة فى تاريخنا المصرى فى أوائل القرن الحالى كان يدين فى نجاحه لحفظه القرآن الكريم فى صغره.

ولقد اكتشف الاستعمار الذى أذل بلادنا أنه لا ينجح فى مهمته طالما القرآن الكريم جزءاً أصيلاً فى مناهج التعليم، فعمل على تعويق ذلك وإخراجه من مناهج التعليم، ومنذ ذلك الوقت وبدأ الزرع يذوى، والضعف يظهر واللسان يتعثر، والعقل يخمل..

إن تعود الطفل منذ نشأته على تلاوة القرآن الكريم يقوم لسانه ويقوى لغته، ويطبعه على الفصاحة وحسن الأداء فى التعبير، ويأخذ بيده إلى طرق السلامة والصواب، إلى جانب ما يناله بسبب ذلك من عظيم الثواب.

وأفضل وقت لحفظ القرآن الكريم هو وقت الصغر فالتعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء، ومن خصائص القرآن الكريم أن الله تعالى يسر حفظه لمن أراد، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾

(مريم: ٩٧).

ولقد رأينا من حفظ القرآن الكريم وهو فى سن السابعة أو دونها أو فوقها بقليل وقد شاهدنا على شاشات «التليفزيون» أطفالا صغارا فى عمر الزهور انتزعوا إعجاب الناس واستولوا على ألبابهم بحفظهم القرآن الكريم ومراعاة أحكامه وهم فى سن السادسة أو السابعة، وقد منحوا جوائز عظيمة هم جديرون بها..

وكان الإمام الشافعى من بين أولئك الذين حفظوا القرآن مبكرا.. فقيل قد حفظه فى السابعة من عمره، وقيل بل حفظه فى التاسعة، وقال بعضهم: بل حفظه فى الخامسة، وليس ذلك غريبا على الشافعى الذى امتاز بالفطنة والذكاء الخارق.

إقباله على التعليم

وأقبل الشافعى على التعليم بهمة لا تعرف الكلل، ولكن التعليم يحتاج إلى ذات يد، فمن أين ثمن الألواح والأقلام والأوراق، وهو فقير ليس لديه شىء؟ ولكن الحاجة

تفتق الحيلة، لقد كان يذهب إلى الدواوين يستوهب من أهلها أوراقاً يكتب عليها، كما كان يلتقط الخزف وأكتاف الجمال، وكرب النخل وما يراه يصلح للكتابة عليه، ويحتفظ به، ويستعمله فى الكتابة.

وحين كان فى الكتاب، وقد عجز عن دفع أجرة القارىء الذى يقرأ عليه لجأ إلى مساعدة الفقيه فى تعليم الصبيان، وبذلك وفر على نفسه الأجرة وضمن لنفسه الاستمرار فى التعلم مجانا، لقد اكتشف المحفظ موهبته وقدرته على الحفظ فوكل إليه مهمة المراجعة للأطفال وتحفيظهم، وبذلك نصب نفسه معيدا فى جامعة أستاذه فى وقت لم تكن هذه الوظيفة قد عرفت، وقد استحدثها الشافعى وهو فى سن لم تصل إلى العاشرة بعد. فكيف يكون حين تتقدم به السن وتتسع أمامه الآمال ويقفز به الطموح إلى غايات لا يعلمها إلا الله؟؟

إن الشافعى ليحدث عن نفسه قائلا: لقد حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين.

لقد اتسعت آمال الشافعى وأدرك لذة العلم صغيرا ووضع الله فى نفسه الاستعداد لذلك ووجد من أمه التشجيع عليه، وهيأ الله الأسباب التى تكفل له النجاح فى ذلك.

نصيبه من اللعب

لقد شغف الشافعى بطلب العلم شغفا شديدا، ولكنه مع ذلك كغيره من الأطفال ممن هم فى سنه لم ينس نصيبه من اللعب، إلا أن لعبه أيضا كان جادا كان همه منصرفا فى ذلك إلى الرمى، وأجاد ذلك إجادة تامة، حتى قال: كانت نهمتى فى شيئين — فى الرمى وطلب العلم، فنلت من الرمى حتى كنت أصيب عشرة من عشرة.

والرمى من ألوان الرياضة التى ندب الشرع إليها وحث عليها، وقال النبى ﷺ فى ذلك: «علموا أبناءكم السباحة والرماية، ونعم لهو المرأة المؤمنة بيتها المغزل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك»(١). وروى عبد الرحيم الزهرى عن عطاء أنه رأى جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين يرتميان، فمل أحدهما فجلس، فقال له صاحبه:

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١/ ٣٣٤٩.

كسلت؟ قال: نعم، قال أحدهما للآخر: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل شىء ليس من ذكر الله فهو لعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشى الرجل بين الغرضين، وتعلم السباحة»(١).

وكان الشافعى فى إقباله على الرمى لا يبالى حر الشمس ولا قسوة الرمضاء التى تلهب الأقدام فى مكة، يقف مع لداته من الصبيان ينتضلون وهو ينتضل معهم حتى يغلبهم ويفوز عليهم، والرياضة عادة تحتاج إلى غذاء جيد، وطعام مناسب، ولكن أنى ذلك والأسرة فقيرة والدخل محدود والأم لا مورد لها إلا دخل يسير من سهم ذوى القربى؟

لقد عرض هذا النصب الدائم فى الدرس والرمى الشافعى للهزال والضعف، حتى لقد رآه متطبب فخشى عليه داء السل، إلا أن الله كان معه فنجاه وأخذ بيده، ووقاه شر المرض.

منهج التعليم

منهج التعليم السائد فى ذلك الوقت هو القرآن الكريم حفظا وأحكاما، ورواية الحديث، وقد أجاد الشافعى ذلك فى وقت مبكر، فقد حفظ القرآن الكريم وشفع ذلك بحفظ الموطأ وهو كتاب الإمام مالك الذى وضعه فى الحديث الشريف مبوبا على أبواب الفقه.

ولكن إلى جانب ذلك كان هناك إقبال منه على دروس اللغة والنحو، وكانت هناك حلقات فى المسجد الحرام يتناول فيها الدارسون ذلك. إلا أن عناية الشافعى اتجهت إلى اللغة، ولم يشأ أن يتلقاها إلا على يد أربابها فى البادية.

فلينطلق إلى البادية ـ إذن ـ يتعلم الفصاحة، ويتلقى اللغة خالية من التحريف والتصحيف، وكان هذا أمرا مشاعا منذ القدم، وطريقا معروفا ينتهجه الناس، حتى لقد سلكته أسرة النبى ﷺ معه حين أرسلته إلى البادية رضيعا، وهناك فى بادية بنى سعد حيث كانت مرضعته حليمة السعدية ـ نشأ فدرج لسانه على الفصاحة الفطرية والبيان الناصر والمنطق الفصل، حتى وصفه الحصرى فى كتابه زهر الآداب بقوله: كلام الرسول ﷺ هو النهاية فى البيان والغاية فى البرهان، المشتمل على جامع الكلم وبدائع الحكم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش

(١) النبى ﷺ فى مرآة أصحابه لعبد الحفيظ فرغلى ص ٢١٦.

واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر» وليس بعض كلامه بأولى من بعض بالاختيار ولا أحق بالتقديم والإيثار.

وكان الخلفاء والوجهاء من الناس يلحقون أولادهم بالبادية لتصح ألسنتهم وقد فعل ذلك عبد الملك بن مروان بأولاده، ولكنه كان يؤثر الوليد بمزيد من الحب فأبقاه بجانبه فأثر ذلك فى لسانه، ومال به إلى بعض اللحن، ولذلك قال عبد الملك: أضر حبنا للوليد به.

انطلق الشافعى إلى البادية ليتلقى اللغة على أربابها، كما كان يفعل كثير من العلماء فى ذلك الوقت كالأصمعى وحماد الراوية وأبى عمرو بن العلاء وغيرهم، وقد نشأ بسبب ذلك علم يسمى بعلم الرواية.

علم الرواية

وينقسم علم الرواية إلى رواية الحديث ورواية الأدب واللغة، والذى يعنينا هنا هو القسم الثانى الذى اهتم به الشافعى.

وكان العرب منذ الجاهلية يروون أشعارهم وأخبارهم وكان لكل شاعر منهم راوية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم، ولما جاء الإسلام، كما يقول الأستاذ محمود مصطفى فى كتابه الأدب العربى وتاريخه ـ واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكرى أيامهم السالفة، وللمباهاة بأعمال آبائهم الأمجاد، ولاحتياجهم إلى الشعر فى تفهم القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ ـ نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعنعنة، إذ لم يكن الأدب فى أول أمره مجالا للكذب لغلبة الورع على الناس، ولأن مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف.

فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد، ثم لما جرى على الأدب فيما بعد ما دعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد، وذلك حين ضعفت اللغة فى عرب الأمصار، فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية، ثم حين فسدت الذمم فصار التقول سهلا

على مستطيعه، فكثر الاصطناع فى الشعر ونحله، فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد، ولذلك ترى سند الرواية فى الأدب ينقطع إليهم وإلى أهل طبقتهم، ولا ترى خبرا أو شعرا متصل السند إلى جاهلى إلا ما كان من حديث رؤية بن العجاج الراجز، فقد سئل عن معنى قول امرىء القيس:

نطعنهم سلكى ومخلوجة　　كرك لأمين على نابل[1]

فقال: حدثنى أبى عن أبيه قال: حدثتنى عمتى وكانت من بنى دارم قالت: سألت امرأ القيس وهو يشرب طلى مع علقمة بن عبدة: ما معنى قولك: كرك لأمين على نابل؟

قال: مررت بنابل وصاحبه يناوله، فما رأيت أسرع من ذلك.

وحدث حماد قال: كان للكميت المتوفى سنة ١٢٦ هـ جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس فيها، فإذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه، قال حماد: فمن هنا كان علمه.

وكثرت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادر العرب، وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ هـ وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبو يزيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٥ هـ والأصمعى المتوفى سنة ٢٧ هـ.

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، ولكن شهرته فى الفقه غلبت شهرته فى رواية اللغة، ذلك أن هؤلاء الذين ذكرناهم انقطعوا لرواية الأدب ووقفوا أنفسهم عليه، أما الشافعى فقد عدل عن ذلك حين أحس أنه أخذ من ذلك ما يكفيه، ورأى أن غير ما يطلبه أحق بالطلب مما هو فيه.

ومازال العلماء يرحلون إلى البادية فى طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها.

---

(١) يعنى نطعنهم طعنا يذهب منهم ويرجع كما ترد سهمين على رام بهما، والسلكى: الطعنة المستقيمة، والمخلوجة: الطعنة المتجهة يميناً أو يسرا، اللسان.

والعلماء يذكرون أن الشافعى انقطع فى البادية ليأخذ لغة هذيل، وكانت هذيل معروفة بالفصاحة والبلاغة، ولديها شعراء أنضجهم الشعر، وانساب على ألسنتهم كما ينساب الماء الرقراق يروى الظمأ ويذهب الصدى. وقد اعتنى الأدباء بنشر شعر الهذليين فجمعوه فى ديوان كبير توفروا على تحقيقه وطبعه، وجمع صاحب الأغانى طائفة كبيرة من هذا الشعر، وعلق عليه بما هو معروف عنه من خفة الروح والاستطراد الأدبى الذى يشير إلى اتساع المعرفة وكثرة الثقافة.

ولعله لا يكون من نافلة القول أن نستشهد فى حديثنا عن الشافعى الذى عنى بشعر هذيل ببعض ذذلك، ليكون زادا للأديب، وعونا للأريب.

من أخبار أبى صخر الهذلى وشعره

وأبو صخر الهذلى هو عبد الله بن سلم السهمى، أحد شعراء هذيل، شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية وكان مواليا لبنى مروان، وله فى عبد الملك وأخيه عبد العزيز مدائح.

قال أبو الفرج: لما ظهر عبد الله بن الزبير بالحجاز، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية، دخل عليه أبو صخر الهذلى فى وفد من هذيل وقد جاءوا ليقبضوا عطاءهم وكان ابن الزبير عارفا بهواه فى بنى أمية فمنعه عطاءه.

فقال أبو صخر: علام تمنعنى حقا لى، وأنا امرؤ مسلم، ما أحدثت فى الإسلام حدثا، ولا أخرجت من طاعة يدا؟

قال ابن الزبير: عليك بنى أمية فاطلب عندهم عطاءك.

قال: إذاً أجدهم سباطاً أكفهم، سماحا أنفسهم، بذلاء لأموالهم، وهابين لمجتهديهم، كريمة أعرافهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم، قريبا من رسول الله ﷺ نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نسبوا بأذناب ولا أتباع ولا هم فى قريش كفقعة القاع، لهم السؤدد فى الجاهلية والملك فى الإسلام، لا كمن لا يعد فى عيرها ولا نفيرها، ولا حكم آباؤه فى نقيرها وقطميرها، ليس من أحلافها المطيبين، ولا من

سادتها المطعمين، ولا من جـودائها الوهابين، ولا من هاشمها المنتخبين ولا عـبد شمها المسودين، وكيف نقابل الرؤوس بالأذناب؟

وأين النصل من الجفـن، والسنان من الزج، والذنابى من القدامى؟ وكـيف يفضل الشحيح على الجواد، والسوقى على الملك، والحامع بخلاً على المطعم فضلا؟

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه، وعرق جبينه، واهتز من قرنه إلى قدمه، وامتـقع لونه، ثم قـال له: أما والله لولا الحـرمات الثـلاث: حرمـة الإسلام، وحـرمة الحرم، وحـرمة الشهـر الحرام لأخـذت الذى فيه عـيناك، ثم أمر به إلى سـجن عارم، فجس به مـدة، ثم استوهبـته هذيل ومن له من قريش خـئولة فى هذيل، فأطلقـه بعد سنة، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا.

فلما قتل عبد الله بن الزبير، وانتظم الشمل لعبد الملك، وحج لقيه أبو صخر فلما رآه عبد الملك قربه وأدناه، وقـال له: لم يخف على خبرك، ولا ضاع لك عندى هواك ولا موالاتك.

فأنشده أبو صخر قصيدة نذكر منها:

فأقـصر فـلا ما قد مـضى لك راجع ... ولا لذة الـدنيـا يـدوم دوامـهـا
وقـدْ أمـيـر المؤمنيـن الذى رمى ... بجأواء[(١)] جـمـهور تمـور إكامـهـا
من أرض قـرى الزيـتـون ـ مكة[(٢)] ... غلبنا علـيـهـا واسـتـحل حـرامـهـا
والحـد فـيهـا الفـاسـقون وأفـسـدوا ... فخـافت فواشيـها[(٣)] وطار حمـامها

ولرقة الغزل الذى فيهـا ينازعه كثير من الشعراء، حتى لقـد نسب منها أبيات لغير شاعر من شعراء الغزل.

---

(١) كتيبة جأواء: كدراء اللون فى حمرة، والاكام جمع أكم والأكم جمع أكمة. والأكمة مجتمع الرمل.
(٢) مكة: مفعول به لرمى فى البيت السابق.
(٣) الفواشى جمع فاشية ويقصد به الغنم السائمة والإبل.

من شعر عبيد الله بن عتبة وأخباره

وعبـيد الله بن عتبـة الفقهاء المشـهورين بالمدينة، والذى قال فى حـقه عمر بن عـبد العزيز ـ ﷺ ـ مرة: لـو كان عبيد الله بن عـبد الله بن عبد الله حيـا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم من عبيد الله غرما، قال ذلك فى خلافته.

ولكن عمر بن عبد العزيز كان يلتقى به كثيرا أيام أن كان أميرا بالمدينة.

وهو عبيـد الله بن عبد الله بن عتبـة بن مسعود الهـذلى حفيد شقـيق عبد الله ابن مسعود صاحب رسول الله ﷺ.

وهو أحد السبـعة الدين كان يروى عنهم الفقه والحـديث والفتوى فى المدينة وهم: القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسـعيد بن المسيب، وخارجة بن زيد بن ثابت وسليـمان بن يسار، وعبيد الله بن عتبة ـ وكان عبيد الله ضريرا.

كان عبيد الله ـ على فقهه وورعـه ـ شاعرا ـ ومن الأخبار التى ذكرها أبو الفرج فى أغانيه حول شعره ما يقوله:

دخل عروة بن الزبير وعـبيد الله بن عبد الله عـلى عمر بن عبد العـزيز وهو أمير المدينة فقال عـروة حدث من ذكر عائشة وعبـد الله بن الزبير سمعت عائشـة تقول: ما أحببت أحدا حبى عبد الله بن الزبير ـ لا أعنى رسول الله ﷺ ولا أبوى.

فقال عمـر: إنكم لتنتحلون عائشة لابن الزبير انتحـال من لا يرى لكل مسلم معه فيهـا نصيبا. فـقال عروة: بركة عائشـة كانت أوسع من ألا يرى لكل مسلم فـيها حق، ولقد كان عبد الله منها بحيث وضعته الرحم والمودة التى لا يشرك كل واحدة منهما فيه عند صاحبه أحد.

فقال عمر: كذبت.

فقال عروة: هذا عبيد الله يعلم أنى غير كاذب، وأن من أكذب الكاذبين من كذب الصادقين.

وكانت هذه فلتة من عمر، ولكنها كانت قبل أن يتبوأ عرش الخلافة، أيام أن كان مزهوا بنفسه، مفتوناً بشبابه وحسبه.

فسكت عبيد الله ولم يدخل بينهما فى شىء، فأفف بهما عمر، وقال: اخرجا عنى، ثم لم يلبث أن بعث إلى عبيد الله رسولا يدعوه لبعض ما كان يدعوه إليه، فكتب إليه عبيد الله.

لعمر ابن ليلى وابن عائشة التى ... لمروان أدته أب غير زمل[1]

لو أنهم عما وجدا ووالدا ... تآسوا فسنوا سنة المتعطل

عذرت أبا حفص وإن كان واحدا ... من القوم يهدى هديهم ليس يأتلى[2]

ولكنهم فاتوا وجئت مصليا[3] ... تقرب إثر السابق المتمهل

وعمت فإن تسبق فضنء[4] مبرز ... جواد وإن تسبق فنفسك فأعلل

ومن شعر أبى ذؤيب الهذلى وأخباره

وأبو ذويب هو خويلد بن محرث بن مخزوم، عاش جاهليته وصدراً من إسلامه بالبادية، وقد أسلم ولم ير النبى ﷺ، حتى سمع أنه عليل، فقدم المدنية وقد مات رسول الله ﷺ وحضر أبو ذؤيب مبايعة أبى بكر فى السقيفة، ثم شهد الصلاة على النبى ﷺ ودفنه، ثم عاد إلى قومه، ولبث بالبادية حتى خلافة عمر، فقدم عليه ورغب فى الجهاد وكانت له خمسة أبناء هاجروا، وأصيبوا فى عام واحد بالطاعون فماتوا، فرثاهم بقصيدة راذعة ما تزال تروى.

كان فصيحا، كثير الغريب للزومه البادية، وقصيدته العينية فى بنيه تشهد بذلك، قيل: إن المنصور مات له ابن اسمه جعفر، فلما انصرف من دفنه قال للربيع: ابغنى من

(١) زمل: ضعيف مقصر.
(٢) يأتل: يقصر.
(٣) مصليا: الذى يلى السابق.
(٤) ضنئ: ولد.

أهلى من ينشدنى قصيدة أبى ذؤيب، حتى أتسلى عن مصيبتى، فلم يجد الربيع فيهم أحداً يحفظها، فعاد إليه يخبره، فقال: والله لمصيبتى بأهل بيتى لا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم من مصيبتى فى بنى، ثم قال: انظر، هل فى القواد أو العوام من يحفظها؟ فوجد شيخاً مؤدبا يحفظها، فجاء به، فلما قال:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال المنصور: صدق والله، أنشدنى هذا الشطر مائة مرة.

ومن هذه القصيدة:

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع؟
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت، ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم موضعا ... إلا أقض عليه ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لجسمى أنه ... أودى بنى من البلاد فودّعوا
أودى بنى فأعقبونى حسرة ... بعد الرقاد، وعبرة ما تقلع
سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب
فغبرت بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كل تميمة لا تنفع[1]

إن أبيات هذه القصيدة التى بلغت ثمانية وستين بيتا تشهد بفصاحة هذا الشاعر وعمق فكرته وصادق حكمته، ولقد أصبحت هذه الأبيات يتمثل بها فى معرض الأحداث والمناسبات المتشابهة، يقال: إن ابن عباس رضي الله عنهما دخل على معاوية وكان مريضاً، فقال

(١) الأدب العربى وتاريخه، لمحمود مصطفى ١/ ١٠٣.

معاوية لمن حوله: أجلسونى، ليظهر التجلد أمامه.. ثم تمثل معاوية قائلا:

وتجلدى للشامتين أريهم　　　أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فرد عليه ابن عباس قائلا:

وإذا المنية أنشبت أظفارها　　　ألفيت كل تميمة لا تنفع

والبيتان من قصيدة أبى ذؤيب الهذلى..

فشعر الهذيليين فى غاية البلاغة والفصاحة وسلامة اللغة ونضارتها، فليس عجيبا أن يطلب الشافعى هذا الشعر، ويحفظه حتى أصبح حجة فيه.

لقد حدث الرواة أن الشافعى مكث سبعة عشر عاماً يطلب شعر الهذليين، صاحبهم فى باديتهم يقيم بإقامتهم ويرحل برحيلهم.

وربما كان هذا القول مبالغا فيه لأنه يتعارض مع قول من يقول إنه أفتى وعمره أربعة عشر عاما، فعلى فرض أنه رحل إلى البادية بعد حفظه القرآن وسنه سبع سنوات تكون سنه بعد انتهاء رحلته إلى البادية إحدى وعشرين عاماً، فمتى رحل إلى المدينة؟ ومتى حفظ الموطأ؟ وكيف قابل مالك؟.

ولا يستقيم الأمر إلا على أن رحيله لبادية هذيل لم يكن متواصلا، ولكنه كان يذهب ويعود ويرحل ويقيم، ولكنه لا يقيم إقامة دائمة.

ومع ذلك فقد حفظ شعر الهذليين حتى أصبح حجة فيه إلى درجة أن أستاذ الرواية الأصمعى صحح هذا الشعر عليه.

من هو الأصمعى؟

والأصمعى هو عبد الملك بن قريب ـ واسم قريب عاصم ـ وأبوه على بن أصمع بن مظهر بن رباح الباهلى، ونسب الأصمعى إلى جده أصمع كما هو واضح. نشأ فى البصرة، وقدم بغداد فى أيام الرشيد. وعاد إلى البصرة بعد وفاته، وحاول المأمون استقدامه إلى بغداد فاعتذر إليه بالضعف والشيخوخة.

امتاز الأصمعى بالحافظة القوية النادرة، يدل على ذلك أن الحسن بن سهل الوزير حين قدم العراق أراد أن يجمع حوله بعض رجال الأدب. فأحضر أبا عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعى، ونصر بن على الجهضمى، فابتدأ الحسن فنظر فى رقاع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين، ثم أمر فرفعت إلى الخازن، ثم أفاضوا فى ذكر الحفظ، وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به، فالتفت أبو عبيدة وقال: ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وهاهنا من يقول إنه ما قرأ كتابا قط فاحتاج إلى أن يعود إليه، ولا دخل قلبه شيء وخرج منه؟.

فالتفت الأصمعى وقال: إنما يريدنى بهذا القول، والأمر فى ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه. قد نظر الأمير فى خمسين رقعة، وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة، فأحضرت الرقاع. فقال الأصمعى: سال صاحب الرقعة الأولى كذا، ووقع له بكذا، ثم مر فى نيف وأربعين رقعة، فالتفت إليه نصر الجهضمى وقال: أيها الرجل، أبق على نفسك من العين، فكف الأصمعى.

وكان الأصمعى يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر.

وامتاز الأصمعى كذلك بطلاوة الحديث وحلاوة التعبير، وهذا الذى حبب الخلفاء والأمراء فيه.

قال عنه الإمام الشافعى: ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى.

كذلك كان صادقا فى حديثه مأمون الرواية لمكانه من خشية الله وتقاه. كان الإمام الشافعى يثنى عليه ويقول عنه: ما رأيت بهذا العسكر أصدق من الأصمعى.

وكذلك كان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه ويقول عنه: إنه ثقة.

وقد برع الأصمعى فى علوم شتى منها النحو واللغة والغريب والشعر، وله شيوخ كثيرون أخذ عنهم، أخذ عن عبد الله بن عون، وشعبة بن الحجاج، وحماد بن سلمة، وحماد بن دريد، والخليل بن أحمد.

وأخذ عنه كثير من العلماء وله مؤلفات كثيرة منها:

❖ الأصمعيات، وهى مجموع مختارات من الشعر.

❖ رجز العجاج.

❖ أسماء الوحوش.

❖ كتاب الإبل.

❖ كتاب الخيل.

❖ كتاب خلق الإنسان.

❖ كتاب الشاء، وغيرها.

وتوفى الأصمعى سنة ثلاث عشرة ومائتين، ورثاه أبو العتاهية بقوله:

أسفت لفقد الأصمعى، لقد مضى حميداً له فى كل صالحة سهم

تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الأنس والعلم

وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم[1]

لماذا شعر هذيل؟

واعتنى الشافعى بشعر هذيل لفصاحتهم وقرب باديتهم، وكان الرواة الذين يرغبون فى الفصيح لا يأخذون من أى أعراب، بل كانوا يقصدون أعراباً بعينهم اشتهروا بين العرب بالفصاحة وخلوص النسب. وممن صحت عربيتهم قبائل قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيئ ولم يأخذوا عن لخم ولا جذام لمجاورتهما أهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان لحلولهم بالشام، ولا عن بكر لمجاورتهم الفرس، ولا عن عبد القيس والأزد وعمان لمخالطتهم الهند والفرس بالحرين، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من أهل الحجاز لأنهم كانوا أسبق العرب إلى المخالطة فإن ألسنتهم كانت قد فسدت حين بدأ الرواة ينقلون اللغة(٢).

(١) ا راجع ترجمته فى وفيات الاعيان ج١، الفهرست لابن النديم، الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى جـ ٢.

(٢) الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ١/ ٣٦٢.

فكان الشافعى حسن الاختيار فى تلقيه اللغة حين قصد هذيلا، وانقطع إليهم فترة من حياته حتى حفظ شعرهم وأجاد لغتهم، وانتفع بفصاحتهم حتى أصبح حجة فى ذلك.

ولم يكتف بذلك، بل حفظ كثيرا من الشعر الجيد الذى اشتهر أصحابه بالفصاحة كالشنفرى الذى سنعرف به بعد، وقد أعان الشافعى فى مهمته أرومته العربية، وفطرته الصافية، وذكاؤه وقوة حفظه. وهذه من أهم مقومات الرواية.

الشافعى أستاذ الأصمعى

ومن العجيب أن يكون هذا الأستاذ الجليل البارع فى فنه قد تلقى على الشافعى أخص شىء تخصص فيه.

يقول الدكتور عبد المنعم خفاجي: كان للإمام الشافعى منزلة كبيرة فى الشعر وروايته، بدأت صلته به منذ شبابه، ومازال يجول فيه حتى بعد أن انصرف إلى فقهه، وصار فى مكنته أن يرتجل فى المعنى الذى يريده بيتا أو بيتين أو ثلاثاً.

وقد جمع الشافعى فى أول دراساته شعر الهذليين واختص به، وشعرهم كان جاهليا وإسلاميا فصيحا، تناولوا فيه الحماسة والفضائل والحكمة، ولعل الشافعى أعجب بشعر هؤلاء لنشأته فى قبادلهم ورضاه عن طباعهم، ولأن هذيلا كما يقول الشافعى نفسه. أفصح العرب.

وروى الشافعى شعر الشنفرى، وكان كثيراً ما يتمثل بأشعار الطفيل الغنوى كما أورد ابن أبى حاتم فى كتابه آداب الشافعى ومناقبه.

ويقول الشافعى فى حديثه عن مبدأ أمره: خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب، قال: فبقيت سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة أخذت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب وحدث الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير أنه خرج إلى اليمن فلقى محمد بن إدريس الشافعى وهو مجتهد فى طلب الشعر والنحو والحديث.

واتصل الأصمعي بالشافعي يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وشرحه وفصيحه وغريبه. روى أبو عثمان المازني قال: سمعت الأصمعي يقول: قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة.

وحكى الحسين بن أحمد البيهقي الفقيه ببغداد قال: سمعت حسان بن محمد يحكي عن الأصمعي أنه قال: صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي، قال: وحكى لنا عن مصعب الزبيري قال: كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً.

ويقول الدكتور عبد الجبار الجومرد في كتابه «الأصمعي» عن المزهر للسيوطي: إنه درس ديوان شعر الشاعر الجاهلي الشنفرى وشعر بني هذيل في مكة على الإمام محمد بن إدريس صاحب المذهب الشافعي، ثم قال: والظاهر أنه درس ذلك في أواخر أيامه وهو مُسن في حين أن أستاذه كان أصغر منه سنا[١].

من هو الشنفرى[٢]؟

وإذا كان الحديث عن مرويات الشافعي، فلنشر إلى الشنفرى الشاعر الذي بلغ غاية كبرى في الفصاحة وقوة العارضة.

وترجع شهرة الشنفرى إلى لاميته المشهورة بلامية العرب التي توفر على دراستها وشرحها كثير من الأدباء والعلماء، ويكفي أن يكون في مقدمة شراحها الإمام الزمخشري صاحب تفسير الكشاف.

والشنفرى هو ثابت بن أوس الازدي، الملقب بالشنفرى، لم يعرف تاريخ ولادته، وقيل في نشأته آراء مختلفة وروايات متباينة، ولكن هناك إجماعا على القول بأنه عاش ونشأ بين بني سلامان من بني فهم الذين أسروه وهو طفل صغير، فلما شب عرف بقصة أسره، فحلف أن يقتل منهم مائة رجل..

---

(١) مقدمة ديوان الشافعي تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي.

(٢) يقال: رجل شنفيرة إذا كان سيء الخلق أو صاحب نشاط والشنفار = الخفيف، وناقة ذات شنفارة أي حدة، والشنفرى اسم رجل. لسان العرب لابن منظور.

وهو معدود من الشعراء الصعاليك، واشتهر عنه مع زملائه أنه كان من أشهر العدائين وأكثر الشعراء الصعاليك جرأة وأشدهم دهاء.

عاش مع أخوته الصعاليك تارة، ومنفرداً تارة أخرى، فى البرارى والجبال والمغارات البعيدة، يغزو على قدميه مرة ــ وعلى فرسه مرة أخرى، ويهاجم أضعاف عدده من الناس ويسلبهم، وقد مات مقتولاً على يد أحد أفراد القبيلة التى انتقم منها وقتل تسعة وتسعين منها، وأما القتيل المائة فقيل: إنه بعد أن مات الشنفرى رفسه هذا الرجل على جمجمته، فدخلت شظية فى قدمه وقتلته.

شعر الشنفرى

وللشنفرى أشعار كثيرة ولكن أجودها تلك القصيدة المطولة المعروفة بلامية العرب التى يقول عنها النقاد: إنها من أفضل نماذج الشعر الجاهلى عامة وشعر الصعاليك خاصة، وذلك لما حوته من مميزات أساسية فى إبراز حياة الصعلوك وخصاله فى الفروسية والبطولة، واليأس من الجماعة الإنسانية. ولها مناسبة يتحدث عنها فى قصيدته ــ ذلك أنه ضاق ذرعا بمصاحبة قومه الذين نشأ بينهم، فقرر الهجرة عنهم ــ بعيدا عن أذى قومه له، وكيف أنه يفضل عشرة وحوش البر على عشرتهم، وقارن بين شجاعته وشجاعة الوحش وقرر أنه أشجع من الوحش، وأنه اختار ثلاثة أصحاب هم قلبه الأبى الشجاع، وسيفه الأبيض، وقوسه الصفراء.

وإليك بعض ما جاء فى قصيدته:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات، والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرحل

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل

(١) السيد: الذئب، العملس: القوى على الجرى، والأرقط الزهلول: النمر الأملس، ويجوز أن يكون الحية، ويذكر ويونث. والعرفاء: ذات العرف، والجيال من أسماء الضبع.

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

ولى دونكم أهلون: سيد عملس ... وأرقط زهلول، وعرفاء جيال[1]

وكل أبى باسل غير أننى ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسل

هم الأهل، لا مستودع السر ذائع ... لديهم، ولا الجانى بما جر يخذل

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم، إذ أجشع القوم أعجل

وماذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم، وكان الأفضل المتفضل

ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت، وصفراء عيطل[1]

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأسف ترب الأرض كى لا يرى له ... على من الطول امرؤ متطول[2]

إن القصيدة رائعة حافلة بغريب اللغة. وأبيات الحكمة النادرة المستخلصة من تجارب الأيام وخوض الأحداث والمغامرات، وتستطيع أن تلمس ذلك بنفسك حين تطالع هذه القصيدة، وتقرأ شروحها المتعددة التى قام بها كبار الأدباء والمحققين.

(١) الفؤاد المشيع. الجسور ـ أبيض إصليت: سيف صقيل ـ صفراء عيطل: فرس صفراء طويلة العنق.
(٢) موسوعة الشعر العربى. اختارها وشرحها وقدم لها: مطاوع صفدى وإيلى حلدى ١/ ٥٣، شركة حياط للكتب والنشر ـ لبنان.

الفصل الثانى

فى ميدان الفقه

من الذى لفت نظره
شيوخه
الإمام مالك
نجابة الشافعى
الشافعى يرحل إلى الكوفة

فى ميدان الفقه

أعجب الشافعى بجمال اللغة وشغف بها، وفرغ إلى ذلك همه، وبذل فيه جهده، ومازال كذلك حتى لفت نظره رجل من بنى عمه إلى أن هناك ما هو أولى بهذا الجهد المبذول، والتعب الموصول.

لقد عاد إلى مكة بعد رحلته الطويلة فى هذيل. وقد علق ذهنه كثيراً من أشعارهم ووعى صدره مالا يحصى من أخبارهم، وأخذ يروى ما سمعه، ويحدث بما وعاه وحفظه، وجذب اهتمام قومه وأهله وأصحابه بما أسمعهم إياه فأخذوا يتحلقون حوله، ويستزيدونه مما يرويه ويحكيه.

ولكن واحداً منهم عز عليه أن تكون هذه العقلية الناضجة، قد صرفت همها كله فى غير زاد ينفع صاحبه فى الآخره فالتفت إليه يقول: يا أبا عبد الله، عز على ألا يكون لك مع هذه اللغة وتلك الفصاحة فقه.. فتكون بذلك قد سدت أهل زمانك.

وقد نبهت هذه العبارة من الشافعى غافلا.. فبدأ يطلب الفقه..

من الذى لفت نظره؟

إن هناك روايات متعددة حول التفات الشافعى إلى طلب الفقه والاجتهاد فى تحصيله..

وقد ذكر الدكتور الشرباصى هذه الروايات قال:

من هذه الروايات: أنه كان يسير يوماً على دابة له، وهو ناشىء، وخلفه كاتب لعبد الله الزبيرى، فتمثل الشافعى ببيت من الشعر، فقرعه الكاتب بسوطه كالناصح له

وقال له مرشداً: مثلك يذهب بمروءته فى مثل هذا؟ أين أنت من الفقه؟ فأثر ذلك فيه، وهزه، وسارع بمجالسه مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة. وتلقى عنه.

ومن هذه الروايات أنه التقى وهو فى طريقه إلى طلب النحو والأدب بمسلم هذا، فقال للشافعى: من أين أنت؟

قال: من أهل مكة.

قال: أين منزلك؟

فقال: بشعب الخنيف.

قال: من أى قبيلة أنت؟

فقال الشافعى: من عبد مناف.

قال مسلم: بخ بخ، لقد شرفك الله تعالى فى الدنيا والآخرة، ألا جعلت فهمك هذا فى الفقه، فكان أحسن لك؟.

ومن الروايات أيضاً: أن الشافعى كان ينظر فى الشعر، وارتقى عقبة بمنى، وإذا صوت من خلفه يقول له: عليك بالفقه.

ومن هذه الروايات: أن مصعب بن عبد الله بن الزبير التقى بالشافعى وهو مجتهد فى طلب الشعر والغريب والنحو، فقال له: إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك، وانصرف به مصعب إلى مالك بن أنس وأوصاه به. فما فما ترك عند مالك إلا الأقل، ولا ترك شيئاً عند مشايخ المدينة إلا المدينة بعد سنين، وذهب به مصعب إلى مكة، وحدث ابن داود عنه، فأمر له بعشرة آلاف درهم[1].

وعلى أى حال فكل هذه الروايات تشير إلى أن هناك من نبه الشافعى إلى ضرورة الانتباه إلى الفقه وتحصيله، لما فى ذلك من شرف الدنيا والآخرة، ولقد كان الذى نبه الشافعى إلى ذلك ناصحاً له، ولابد أن يكون حريصاً على مصلحة الشافعى مخلصاً فى النصح له، لقد أراد له الخير، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين.

(١) الأئمة الأربعة، د. احمد الشرباصى ص ١٢٣.

شيوخه فى الفقه

ولكن كم كانت سن الشافعى حين بدأ يقبل على الفقه؟

فى بعض الروايات أن عمره كان أربعة عشر عاماً..

ولعلنا نتذكر أنه فى هذه السن كان مازال يطلب اللغة فى هذيل. إلا أنا نعود فنقول: إن طلب اللغة لم يكن يشغل حياته كلها، فقد كان يرحل آنا ويعود آنا. ولعله بعد أن حصل ثروة لغوية وأدبية عاد إلى مكة فى هذع السن التى وجد من يذكره بأن يطلب الفقه، فشمر لطلب الفقه. ولم يقطعه الفقه أيضاً عن اللغة، وعلى ذلك فقد كان يراوح بين طلب الفقه واللغة ـ لقد كانت حياته سلسلة من الرحلات لا تنقطع فى طلب العلم وتحصيله.

ولكن من شيوخه فى طلب العلم؟

الإمام مالك

يأتى فى مقدمة شيوخ الشافعى فى طلب الفقه الإمام مالك بن أنس، ومن الروايات التى ذكرناها فى تنبه الشافعى لطلب الفقه أن الذى نبهه لذلك هو الذى دله على الإمام مالك، فرحل إليه الشافعى من فوره.

رحلته إلى مالك

ولنستمع إلى الشافعى يقص علينا قصة رحلته إلى مالك فيقول:

فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة، لا نبات بعارضى، من الأبطح إلى ذى طوى. وعلى بردتان يمانيتان. أو قال: أسمحيتان. فرأيت ركباً، فسلمت عليهم، فردوا على السلام.

فوثب إلى شيخ كان فيهم فقال لى: سألتك بمن أقسمت علينا بسلامك إلا حضرت طعامنا.

قال الشافعى ـ ﷺ ـ وما كنت علمت أنهم أحضروا طعاماً فأجبت مسرعا غير

محتشم، فرأيت القوم بدءوا يأخذون الطعام بالخمس، ويدفعون بالراحة، فأخذت الطعام كأخذهم كى لا يستبشع عليهم مأكلى، والشيخ ينظر إلى ساعة بعد ساعة، ثم أخذت السقاء، فشربت ريا، وحمدت الله تعالى وأثنيت عليه.

فأقبل على الشيخ وقال: مكى أنت؟

قلت: مكى.

قال: قرشى أنت؟

قلت: قرشى.

ثم أقبلت عليه وقلت له: يا عم، بم استدللت على؟

قال: أما فى البلد فبالشبه، وأما فى النسبة فبالطعام، لأن من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه، وذلك فى قريش خصوصاً.

قال الشافعى ـ رضي الله عنه ـ: فقلت من أين أنت؟

قال: من يثرب مدينة النبى ﷺ.

قلت: من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله ـ عز وجل ـ والمفتى بأخبار رسول الله ﷺ؟

قال: سيد بنى أصبح ـ مالك بن أنس ـ رضي الله عنه.

قال الشافعى: فقلت: واشوقاه إلى مالك.

فقال لى مجيبا: قد بل الله شوقك، أما ترى إلى البعير الأورق؟

قلت: أجل.

قال: هو أحسن جمالنا قياداً وأسلسها مشيا، ونحن ثمانى نفر، ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك.

قال الشافعى: فقلت متى ظعنكم؟

قالوا: فى وقتنا هذا، فما كان غير بعيد حتى قطروا الجمال بعضها إلى بعض، وأركبونى البعير الذى كانوا وعدونى بركوبه. فعلوت ظهره، وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس، فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة، بالليل ختمة وبالنهار ختمة، ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر.

فصليت العصر فى مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر، فسلمت على النبى ﷺ، ولذت بقبره الشريف.

فرأيت مالك بن أنس مؤتزرا ببردة متشحا بأخرى وهو يقول: حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر، ويضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ.

قال الشافعى: فهبته هيبة عظيمة، وجلست حيث انتهى بى المجلس، فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى حديثا كتبته بريقى على يدى، ومالك ينظر إلى من حيث لا أعلم. حتى انفض المجلس، وجلس مالك ينتظر صلاة المغرب. ولم يرنى انصرفت فيمن انصرف، فأشار إلى فدنوت منه. فنظر إلى ساعة، ثم قال لى: أحرمى أنت؟

قلت: حرمى.

قال: أمكى أنت؟

قلت: مكى.

قال: أقرشى أنت؟

قلت: قرشى.

قال: كملت صفاتك، ولم تكون سيئ الادب؟

قلت: وما الذى رأيت من سوء أدبى؟

قال: رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول ﷺ وأنت تلعب بريقك على يدك.

فقلت له: عدمت البياض – أى الأوراق – فكنت أكتب ما تقول.

فجذب مالك يدى إليه، وقال لى: ما أرى عليها شيئاً.

فقلت: إن الريق لا يثبت على اليد، ولكن قد وعيت جميع ما حدثت به من وقت جلست إلى حين قطعت.

فعجب مالك من ذلك فقال: أعد على ولو حديثا واحداً.

قال الشافعى: فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر، وأشرت بيدى إلى القبر كإشارته عن النبى ﷺ، حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا. حدث بها من وقت جلس إلى وقت قطع المجلس.

وسقط القرص، وصلى مالك المغرب، وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك، وسألنى النهوض معه..

قال الشافعى فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه، فلما أتيت الدار أدخلنى الغلام إلى مخدع فى الدار، وقال لى: القبلة من البيت هكذا، وهذا إناء فيه ماء، وهذا الخلاء من الدار وأشار إليه:

قال الشافعى: ما لبث مالك غير بعيد حتى أقبل هو ـ والغلام حامل طبقا فوضعه من يده، وسلم على مالك، ثم قال للعبد: اغسل علينا.

فوثب الغلام إلى الإناء، وأراد أن يغسل على أولا، فصاح عليه مالك، وقال: الغسل فى أول الطعام لرب البيت، وفى آخر الطعام للضيف.

قال الشافعى: فاستحسنت ذلك من مالك، وسألته عن شرح ذلك فقال: إن رب البيت يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل، وفى آخر الطعام ينتظر من يدخل ليأكل معه.

قال الشافعى: فكشف مالك الطبق، وكان فيه صفحتان فى إحداهما لبن، وفى الأخرى تمر، فسمى وسميت، وأتيت أنا وهو على جميع الطعام. وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام كفاية، فقال: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم.

فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء[1].

---

(١) تاريخ الإمام الشافعى، رواية الربيع بن سليمان.

هذه إحدى روايات عن لقاء الشافعى بمالك – ﷺ – على أن هناك رواية أخرى تفيد أن هناك وساطة هذا اللقاء.

وقد تمت هذه الوساطة من كبار القوم، فقد حمل الشافعى من والى مكة العباسى رسالة إلى والى المدينة توصى به.

وتقدم الشافعى بالرسالة إلى الأمير فى المدينة، ولنقرأ ما رواه الشافعى فى ذلك.

قال: دخلت إلى والى مكة وأخذت كتاب والى المدينة وإلى مالك بن أنس فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالى، فلما قرأه قال: يا فتى إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة أهون على من المشى إلى باب مالك بن أنس فلست أرى الذل حتى أقف ببابه.

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر، فقال: هيهات، ليت أنى إذ ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا.

فواعدته العصر، وركبنا جميعا، فوالله لكان كما قال، أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولى لمولاك إنى بالباب.

فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاى يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لديك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف.

فقال لها: قولى له إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة.

فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته، ثم إذا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل، فجلس وهو متطلس(١)، فرفع إليه الوالى الكتاب، – فأخذ يقرأ – حتى إذ بلغ إلى هذا الموطن من خطاب التوصية: (إن هذا رجل من أمره وحاله، وتحدثه، وتفعل وتصنع) فرمى بالكتاب من يده وقال: سبحان الله، أوصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل؟

فرأيت الوالى قد تهيب أن يكلمه، فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله إنى رجل

(١) متطلس: يلبس الطيلسان – نوع من الثياب.

مطلبى، ومن حالى وقصتى كذا وكذا..

فلما سمع كلامى نظر إلى ساعة ـ وكان لمالك فراسة ـ فقال: ما اسمك؟

فقلت: محمد.

فقال: يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شأن من الشأن[1].

نجابة الشافعى

وقد ظهرت نجابة الشافعى فى مجلس مالك، فقد استظهر الأحاديث التى سمعها فوراً. وقيل: إنه كان قد حفظ الموطأ قبل أن يذهب إلى الإمام مالك، فقد روى بعضهم أنه استعار نسخة من الموطأ وهو فى مكة وحفظها فما ذهب إلى مالك إلا وهو على حفظ لكتابه.

وقد رأينا قبل قبل ذلك أنه حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ولكن هذه الرواية يعارضها أنه كان فى ذلك الوقت فى البادية يطلب اللغة، ولم يكن قد تنبه إلى طلب الفقه، وعماد الفقه الذى طلبه هو الموطأ.

وقد نبغ الشافعى على يد مالك حقا، وقد لزمه فى المدينة، وكان ضيفاً عليه طوال ثمانية أشهر، لا يعرف مكانا له إلا ببيت مالك، وقد أنس كل منهما إلى الآخر حتى لم يدر الناس أيهما الضيف وأيهما صاحب المنزل. وأحب مالك الشافعى حباًشديداً، لقد رأى فيه صلاحاً وتقوى، كما رأى فيه نسبا شريفا وحسبا عريقا. ورأى فيه إقبالا على العلم ورغبة شديدة فيه، وأنه لا يطلب ذلك إلا ابتغاء رضوان الله.. فما كان منه إلا أن أخلص له الود وآثره على ولده.

ولم تكن الدنيا قد أقبلت على مالك فى ذلك الوقت، كان الرزق محدوداً والشظف باد عليه، ولكنه مع ذلك لم يقصر فى حق ضيفه، والجود من الموجود، وليس الكرم إغداق مال وإكثار فى الطعام والشراب، ولكنه بسط وجه وسرور نفس وحسن لقاء..

(١) الأئمة الأربعة ـ د. مصطفى الشكعة ص ٣٨٨.

الشافعى يرحل إلى الكوفة

قال الشافعى - رضي الله عنه - أعطانى مالك الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه، فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره، وأقمت ضيفا لمالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذى كان بيننا أينا الضيف.

ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم زائرين نبيهم ﷺ ويسمعون الموطأ. فأمليته عليهم حفظا، وكان من هؤلاء القادمين عبد الله بن الحكم، وأشهب بن القاسم - قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد، ثم قدم بعد ذلك أهل العراق زائرين النبى ﷺ.

قال الشافعى: فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه، نظيف الثوب، حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً، فسألته عن اسمه فأخبرنى، وسألته عن بلده فقال: العراق.

ومازال الشافعى يسأل هذا الرجل عن العراق وأخبارها، حتى عرف أنه من الكوفة، وأن أعلامها من العلماء ينحصرون فى تلاميذ أبى حنيفة، وأشهر هؤلاء الأعلام اثنان هما أبو يوسف القاضى ومحمد بن الحسن الشيبانى..

وتعلق قلب الشافعى بهذين العلمين الجليلين، وود لو يلقاهما لينهل من علمهما.

إنه الآن قد حفظ الموطأ تماما وفهم مسائله، وكانت الأشهر الثمانية التى قضاها فى رحاب مالك فرصة ذهبية بالنسبة له، لقد رشف فيها من رضاب علم مالك ما رواه.. ولكنه زاده شوقاً إلى طلب المزيد من وجهات النظر العلمية الأخرى.. إن فقه المدينة يدور كله حول السنة والأثر.. وقد سمع أن فقه الكوفة يدور حول الرأى والقياس. فما عليه أن ينهل من ذلك الفقه ليقارن بين العلمين، ويستفيد من البحرين.

واستشف من كلام الكوفى أنه يرحب بأن يصحبه معه فى رحلة إلى الكوفة ليلقى الصاحبين، فسأله: متى تظعنون؟

فأجابه الفتى: غداً عند انبلاج الفجر..

ولم يشأ الشافعى أن يرحل دون استئذان، فليس ذلك من طبع الكرام، ولا من

شيمة أصحاب المروءة والشرف، وذوى الحسب والنسب..

لقد أكرمه الإمام مالك كرماً فائقاً، وأنزله فى بيته وجعله ابنه، وقاسمه رزقه، واعتبر نفسه مسئولا عنه، فكيف يرحل عنه دون أن يستشيره ويستأذنه؟ ومضى من فوره إلى الإمام مالك يقول له:

لقد خرجت من مكة فى طلب العلم دون استئذان أمى، وأنا الآن أطلب رأيك فى أن أعود إليها أو أرحل فى طلب العلم؟

فأجابه الإمام مالك جوابا راعى فيه المصلحة بالنسبة له ـ لقد خشى عليه إن عاد إلى أمه أن تفتر همته، ويرضى بما حصله ويقف عنده.. فأشار عليه بالاستمرار فى طلب العلم. قال له: يا محمد، العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة، ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع؟

وسر الشافعى بما سمع، وافق هذا الرأى رغبته المستكنة فى داخله، فقال لمالك: لقد أزمعت السفر إلى العراق فجر غد..

ولم يعترض مالك طريقه، بل شجعه على ذلك، لأنه توسم فيه الخير، والعلماء ينظرون بنور الله. ولم ينس أنه قال له حين لقيه بادئ ذى بدء: يا محمد اتق الله، فإنه سيكون لك شأن من الشأن..

وزوده بما فى مقدوره وقتئذ، أعطاه ضصعاً من أقط، وصاعاً من شعير وصاعاً من تمر.. وسقاء من ماء..

هذه عدة المسافر وعونه فى طريقه الطويل..

والأقط نوع من الطعام خفيف يحمله المسافر ولا يكلفه عناء فى إعداده، هو لبن محمض يجمد حتى يستحجر، ويطبخ أو يطبخ به ـ لعله قريب من «الكشك الذى نستعمله فى أيامنا».

وحمد الشافعى ربه أن هيأ له ذلك، وتوجه بالشكر الجزيل لأستاذه الذى أفسح له صدره وبيته، وأفاض عليه من كرمه مدة إقامته، وسقاه من علمه ما أفاده وأغناه..

فلما كان سحر اليـوم التالى، خرج الإمام مالك مشيعـا تلميذه الأثير، وعاونه فى حمل ما معه من زاد، وسار معه إلى البقيع حيث تتجمع قوافل المسافرين.

وهنا كانت مفاجأة للشافعى.

لقد أعد الشافـعى نفسه ليسافر إلى الكوفة راجـلا، فهو لا يملك راحلة، وليست معه نقـود يكترى[1] بها راحلة، وليس هناك من يحـمله كما حمله صـاحب يثرب إلى يثرب. إن حسبه أن يـصحب القوم المسافرين يأنس برفقتهم، ويأمن فى صـحبتهم أذى الطريق ووعثـاء السفر ومـخاطر السبـاع وقطاع الطرق، ولكن فوجئ بأن أستـاذه مالكا يصيح قائلا: من يكرى راحلة إلى الكوفة؟

ويسمع من أصحاب الرواحل الذين يعدون أنفسهم لهذا العمل من يجيبه..

وهنا أقبل الشافعى يقول له: لم تكترى وأنت لا شىء معك، وأنا لا شىء معى؟

ولكن الإمـام مالكا يطـمئنه قـائلا: ألا تعلم أن فـرج الله قريب، وأن الله تعـالى يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾(الشرح: ٥، ٦) ولن يغلب عسر يـسرين؟؟ لقد جاء الفـرج من حيث لا تحتسب، إنه بالأمس بعـد أن انصرفنا من صلاة العشاء الآخرة قرع على الباب قارع. فـخرجت إليه فإذا بعبد الرحمن بن القاسم المصرى. فرحبت به، ورجانى أن أقبل هديته، فقبلتها تأدبا بأدب النبى ﷺ الذى كان لا يرد الهدية، لقـد دفع إلى صرة فتـحتها فـإذا بها مائة مـثقال ــ دينار ــ وقـد أتيتك بنصفها، وتركت النصف لعيالى.

ما أكرمك يا مالك! وما أبرك! وما أعظمك!.

واكترى مالك للشـافعى راحلة بأربعة دنانير، ودفع إليه الباقى وقـدره ستة وأربعون دينارا، وهو مبلغ يكون ثروة فى تلك الأيام..

وودع الأستاذ تلميذه، وعاد، وانطلق الشافعى إلـى الكوفة فى صحبة القافلة راكبا مستريحا آمنا.

---

(١) يؤجر.

ومكثت القافلة مسافرة ما يقرب من أسبوعين حتى حطت رحالها فى الكوفة قريبا من مسجدها العامر.

لقاؤه بالصاحبين

ويمم الشافعى من فوره صوب المسجد، وكان المصلون قد اصرفوا من صلاة العصر.

وصلى العصر قضاء..

وبينما هو كذلك إذ رأى فتى قد دخل المسجد فصلى، فلم يحسن الصلاة، والشافعى فقيه ومعلم، ورأى أن من واجبه أن يصحح لهذا المسىء صلاته، فقام إليه ناصحا له مشفقا عليه، قال له: أحسن صلاتك أيها الفتى حتى لا يعذب الله هذا الوجه الحسن بالنار.

ولكن هذا النصح لم يصادف قبولا عند الفتى وأثاره، ونظر إلى الشافعى وقال له: أظنك من أهل الحجاز؟

قال الشافعى: نعم.

قال الفتى: لقد علمت أن أهل الحجاز فيهم غلظة وخشونة وجفاء، وقد حرموا من رقة أهل العراق ولطفهم. اعلم أيها الحجازى أننى أصلى هذه الصلاة منذ خمس عشرة بين يدى إمامين جليلين هما أبو يوسف ومحمد ومع ذلك لم يعيبا على صلاتى. وخرج الفتى مبادراً من المسجد، مغاضباً لهذا الحجازى الذى وصفه بأنه لم يحسن الصلاة.

وقد أراد الله أن ييسر أمام الشافعى فرصة لقاء الصاحبين اللذين تجشم مشقة هذه الرحلة. من أجلهما.. فما أن خرج الفتى من المسجد حتى وجد الصاحبين أمامه، فاستنجد بهما ليأخذا له بحقه من هذا الحجازى الجاف.

قال الفتى للصاحبين: هل علمتما فى صلاتى التى أصليها أمامكما من عيب؟

فأجاباه: كلا.

قال الفتى: ألا فاعلما أن فى مسجدنا هذا رجل عاب على صلاتى.

فقال له الصاحبان: امض إلى هذا الرجل وسله: بم يدخل المصلى فى الصلاة؟

وعاد الفتى محنقا، وفى زعمه أنه سوف يأخذ بثأره من هذا الرجل الغريب، وألقى إليه السؤال الذى لقنه.

فأجاب الشافعى إجابة مقتضبة، ولكنها تشير إلى علم ومقدرة، قال له: يدخل المصلى الصلاة بفرضين وسنة.

وبالتأكيد لم يفهم الفتى الجواب، ولكنه مضى به إلى صاحبيه، وقال لهما: لقد أجابنى بأن المصلى يدخل الصلاة بفرضين وسنة.

فما أن سمعا الجواب، حتى فطنا بأن هذا الجواب من رجل لديه نظر فى العلم، ومعرفة بالفقه.. فقالا الفتى: عد إلى الرجل، وقل له: ما الفرضان؟ وما السنة؟

وعاد الفتى أدراجه إلى الشافعى فطرح عليه السؤال..

فقال له الشافعى: أيها الفتى، الفرض الأول هو النية، والفرض الثانى هو تكبيرة الإحرام. أما السنة فهى رفع اليدين.

ورجع الفتى إلى الصاحبين بالجواب، فأدركا أن الرجل عالم، ولابد من لقائه.. ودخلا المسجد ليلقياه، ومعهما الفتى.

ونظرا الى الشافعى، ولكن ملابسه البدوية، ووعثاء السفر البادية عليه بعد رحلة طويلة شاقة جعلتهما يجفلان من لقائه بعد أن هما بالاقتراب منه.

يقول الشافعى: فدخلا المسجد فلما نظرا إلى أظنهما ازدريانى، فجلسا ناحية.. وقالا للفتى الذى معهما: اذهب إليه فقل له: أجب الشيخين.

ولكن الشافعى لم يكن ليقبل على نفسه هذه المهانة. إنه متواضع حقاً ولكن التواضع ليس معناه أن يقبل صاحبه الإذلال.

حقا إنه قد جاء من أجل العلم، ومن أجل لقاء هذين الرجلين، ولكن لابد لهذين الرجلين أن يحسنا لقاء هذا الغريب، وعليهما ألا يقدرا الإنسان بزيه ومنظره، بل يجب

أن يقدراه بعلمه وعقله ومنطقه. فما بالهما حين عرفا جوابه أقبلا عليه، فلما نظرا إليه ارتدا عنه؟

لقد ساءه ذلك حقا، وأراد أن ينتصف لنفسه.

فلما جاءه الفتى وقال له: أجب الشيخين، قال له: من حكم العلم أن يؤتى إليه ولا يأتى، وما علمت أن لى إليهما من حاجة، فإن كان لهما حاجة فليأتيا..

فلما أبلغهما الفتى الجواب أدركا أن هذا الرجل ليس إنسانا عاديا، بل لابد أنه على حظ موفور من العلم والفضل، فمن حقه عليهما أن يقوما إليه.

وقاما من فورهما وتوجها إليه، وألقيا عليه السلام، فقام الشافعى من مجلسه، ورد عليهما السلام. وأجلس كل واحد منهما فى مجلسه، وأظهر البشاشة لهما. وجلس بين أيديهما كجلسة المتعلم.

وأقبل محمد بن الحسن على الشافعى يقول له: أحرمى أنت؟

فقالت الشافعى: نعم.

فقال له: أعربى أم مولى؟

فقال الشافعى: عربى.

فقال له: من أى العرب أنت؟

قال الشافعى: من ولد المطلب.

قال محمد بن الحسن: من ولد من؟

قال الشافعى: من ولد شافع.

قال له: أرأيت مالكا؟

قال الشافعى: من عنده أتيت.

قال له: هل نظرت فى الموطأ؟

قال الشافعي: ما جئت إلا وأنا أحفظه.

وعظم ذلك على الشيخين فما كانا يظنان أن هذا الرجل الذى ازدرياه على هذا القدر.. ولكن ألا يكون ذلك ادعاء؟ وإذن فلابد من التثبت من صحة هذه الدعوى.. ومن ادعى ما ليس فيه كذبته شواهد الامتحان.

وما أسرع أن أمرا باستحضار دواة وأوراق.

وأمسك محمد بن الحسن بالقلم وكتب عدة مسائل من الفقة تتناول مختلف الأبواب. وترك تحت كل مسألة فراغا يسمح بالإجابة.

وألقى بالأوراق التى دون فيها الأسئلة إلى الشافعي، وقال له: أجب عن هذه الأسئلة من الموطأ.

وتناول الشافعي الأوراق، وأخذ يجيب على الأسئلة، ولكنه لم يلتزم بنص الموطأ.

لقد أجاب على الأسئلة من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.. وبذلك أظهر مقدرته، وأنه لم يكن واقفا عند حد العلم الذى تلقنه من مالك وموطئه.

فما أن قرأ الصاحبان إجابة الشافعي حتى أدركا أنه إمام بارع، وليس مجرد رجل مدع.. وقد حق لهذا الرجل أن يعرفا له قدره وأن يحل بينهما فى المحل اللائق به.

لقد استدعى محمد بن بن الحسن الشيباني غلامه، وقال له: خذ سيدك وانطلق به إلى المنزل.. ونظر إلى الشافعي وسأله أن يقوم مع الغلام ويمضى معه.. فقام الشافعي غير ممتنع وقد حمل بعض أدواته التى جاء بها من المدينة، وحمل الغلام بعض هذه الأدوات حتى خرجا من المسجد.

وقال الغلام للشافعي: لقد أمرنى سيدى ألا تنصرف إلى البيت إلا راكباً فقال له الشافعي: قرب دابتك..

فقرب الغلام إليه بغلة عليها سرج محلى.. طاف بها أزقة الكوفة حتى وصل إلى منزل الشيباني.

ونظر الشافعى إلى الدار، وتأمل محاسنها، ورأى ما فيها من نقوش وحلى وما تحتويه من فرش وثيرة وأدوات نضيرة، وتذكر شظف أهل الحجاز وضيق معيشتهم، وجدب أراضيهم، فأخذ يبكى.

وجاء محمد بن الحسن فرآه على هذه الحالة من البكاء.. وفهم سبب بكائه.. فقال له: لا يرعك يا أبا عبد الله ما رأيت، فما هو إلا من كسب حلال، ليس فيه شبهة، وإن زكاته لتؤدى كاملة غير منقوصة.

ولم يقصر محمد بن الحسن فى حق ضيفه، فما بات عنده حتى كساه خلعة قيمتها ألف درهم.

وأحسن محمد بن الحسن ضيافة الشافعى، وعرف أنه ما جاء إلا للقائه ولقاء صاحبه لينتفع بعلمهما.

وقام محمد بن الحسن إلى خزائن كتبه فأخرج منها الكتاب الأوسط الذى ألفه أبو حنيفة. فنظر فيه الشافعى فى ليلته، فما أصبح إلا وقد حفظه وهكذا كان شأن الشافعى فى سرعة حفظه وقوة عارضته. حتى روى الرواة عنه فى ذلك الأعاجيب.

قالوا عنه: إنه كان يخبأ فى أثناء قراءته الصفحة المقابلة للصفحة التى يقرؤها حتى لا تسبق عينه إلى شىء فيها فيحفظه مع الصفحة التى يقرأ فيها. وهذا شىء من النوادر.

وقالوا: إنه كان إذا رأى كتابا وقرأه حفظه كله. وذكروا فى معرض الدليل على ذلك أنه مر بسوق بغداد يوماً، فرأى دلالا يعرض مخطوطاً للبيع فقال له الشافعى: بكم تسمح فى بيع هذا الكتاب؟

فقال الرجل: أرضى فيه بعشرين دينارا.

فأمسك الشافعى بالكتاب، واستعرضه قراءة من أوله، فما فرغ من آخره حتى حفظه. وقال للدلال لا داعى لشرائه لأنى أحفظه.

فتعجب الدلال، ولم يصدقه فى ذلك.

فقال له الشافعى: اسمع على هذا الكتاب، فـقرأ عليه الكتاب حتى بلغ نصفه ولم يخطئ. ثم قال للدلال: خـذ منى عشرين ديناراً هدية وكتابك مـعك، لتنتفع من ثمنه من غيرى، فيا سبحان الله، ما أعظم هذا الذكاء.

وإذن فقد حفظ الشافعى كتاب الأوسط فى ليلته.

وجلس محمد بن الحسن يوماً للإفتـاء، وجلس الشافعى فى مجلسه، وسأله سائل عن مسألة، فأجاب فيها تقليداً، وقال: هكذا قال أبو حنيفة.

واستـعرض الشافـعى ما حفظه فى ذهنه من الكتـاب فإذا به يجد أن مـا أجاب به محـمد بن الحسن غـير صائب. فقـال له: إن ما يقوله أبو حنيـفة فى هذه المسألة غـير ذلك، والدليل على ذلك أن ما يسبقها من المسائل كذا وكذا، وما يعقبها من المسائل كذا وكذا.

واستدعى محمد بن الحسن من حمل إليه الكـتاب ونظر فيه فإذا ما يقوله الشافعى حق فرجع إليه، ولكنه لم يخرج إلى الشافعى فترة طويلة، وقد استفاد منه علماً غزيرا.

ورغب الشافعى فى الرحلة، وعرض ذلك على الشيبانى.

وحاول الشيـبانى استبقاءه عـنده، ولكنه أجابه بأنه ما جاء إلا متـعلما، وبأن هدفه الرحلة فى طلب العلم. فزوده الشيـبانى بكل ما يملك من مال، ولكن نهمـة الشافعى كانت فى العلم، فطلب منه أن يزوده بالكتب التى تحمل علم أبى حنيفة، ولكن محمد بن الحسن لم يسعفه بذلك، فكتب إليه يقول:

قل للذى لم تر عينا ... من رآه مثله
ومن كان من رآه ... قد رأى من قبله
لأن ما يجنه ... فاق الكمال كله
العلم ينهى أهله ... أن يمنعوه أهله
لعله يبذله ... لأهله لعله[1]

(١) ديوان الشافعى ص ١٠٧.

التعريف بمحد بن الحسن

كان محمد بن الحسن الشيبانى هو الشيخ الثانى للإمام الشافعى بعد الإمام مالك.

وقد عرفناه كيف تشوق إلى لقائه ورحل إليه من المدينة إلى الكوفة.

وهذا الشيخ هو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى بالولاء، الفقيه الحنفى، وأصله من قرية على باب دمشق فى وسط الغوطة اسمها «حرستا» وقدم أبوه من الشام وأقام بواسط، فولد بها ابنه محمد المذكور.

ونشأ محمد بالكوفة، وطلب الحديث، وجالس العلماء وتلقى منهم، وكان إمام الكوفة المشهور فى ذلك الوقت هو أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ فلزمه، وتفقه عليه، ثم لزم أبا يوسف بعده.

ومازال يطلب العلم حتى بزع نجمه، وذاع صيته، وله مؤلفات كان لها أثر فى نشر المذهب الحنفى منها الجامع الكبير والجامع الصغير.

وكان يمتاز بالفصاحة وجمال الأسلوب، يقول ابن خلكان عنه: كان إذا تكلم خيل إلس سامعه أن القرآن نزل بلغته..

وقد ولاه الرشيد القضاء على مدينة الرقة، ثم استقدمه بغداد فلزمه حتى مات وهو يرافقه فى إحدى رحلاته إلى الرى، وتصادف أن كان معه فى الرحلة الكسائى إمام النحو، فمات أيضا فى هذه الرحلة، فقال الرشيد وقد أسف لفراقهما: دفنت الفقه والعربية فى الرى، وكانا قد ماتا فى يوم واحد سنة تسع وثمانين ومائة.

تلمذة الشافعى له

وكانت تلمذة الشافعى له فى سنة خمس وستين ومائة تقريبا، وكان الشافعى مازال غلاما بعد، وذلك حين ترك المدينة راحلا إلى الكوفة بعد إقامة دامت ثمانية أشهر مع الإمام مالك على ما قدمنا..

ولم تطل إقامة الشافعى بالكوفة لدى محمد بن الحسن، فقد رحل سريعا بعد أن أخذ ما استطاع من علم سمعه منه، وقد قدر ابن النديم مدة مصاحبة الشافعى لمحمد

بن الحسن بسنة[1].

ولكنه حمل معه فى أثناء أوبته كتبا كثيرة قال عنها الشافعى: حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير. وقد يكون التعبير كناية عن الكثرة.

وقد توثقت الصلة بين الشافعى ومحمد بن الحسن فى هذه الفترة، حتى لقد عز على محمد أن يستأذنه فى الرحيل، وعرض عليه أن يشاطره نعمته ويبقى بجواره، بعد أن أنس إليه وأحبه.

ولكن الشافعى آثر الرحيل، لأنه يريد أن يروى نهمه من العلم، إنه كالنحلة يحب الانتقال لرشف الرحيق من الأزهار.

فودعه الشيبانى بعد أن أعطاه كل ما تحتويه خزائنه من مال سائل يقدر بثلاثة آلاف درهم.

مناظرات بينه وبين محمد بن الحسن

لا تعنى تلمذة الشافعى لمحمد بن الحسن أن الشافعى كان خلوا من العلم، ولكنها تعنى الاستزادة منه، فقد رحل الشافعى إلى الكوفة وقد شهد له الأكفاء بالإفتاء، وقد جلس الشافعى فى حلقة محمد بن الحسن مستمعا ومقارنا، وأحيانا يناظر محمد بن الحسن ويدل ذلك على أن الشافعى كان إمام ولم يكن مجرد تلميذ، وقد علمنا أنه حفظ كتاب أبى حنيفة فى ليلة، ومن حفظه له رد محمدا عن خطأ وقع فيه..

ومن المناظرات التى دارت بينهما مناظرة دارت حول مسألة فى الغصب:

روى الشافعى أن محمدا قال له يوما: بلغنا أنك تخالفنا فى مسائل الغصب، فقال له الشافعى: أصلحك الله، إنما هو شىء أتكلم به فى المناظرة، فإنى أجلك عن المناظرة.

فقال له محمداً: ما تقول فى رجل غصب ساحة وبنى عليها جدارا، وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه؟

قال الشافعى: أقول لصاحب الساحة: ترضى أن تأخذ قيمتها؟ فإن رضى، وإلا قلعت البناء ودفعت الساحة إليه.

قال محمد: فما تقول فى رجل غصب لوحا من خشب، فأدخله فى سفينة،

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٠٨.

ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟

قال الشافعى: لا.

قال محمد: الله أكبر، تركت قولك.

ثم قال محمد: ما تقول فى رجل غصب خيطا من إبريسم، فجرح بطنه فخاط بذلك الإبريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب، أكنت تنزع الخيط من بطنه؟

قال الشافعى: لا.

قال محمد: الله أكبر، تركت قولك، وقال أصحاب محمد أيضا: تركت قولك.

قال الشافعى: لا تعجلوا، أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة وهى فى عرض البحر، أمباح له ذلك أم يحرم عليه؟قال محمد: يحرم عليه.

قال الشافعى: أرأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء وينزعها أيحرم عليه ذلك أم يباح؟

قال محمد: بل يباح.

قال الشافعى: رحمك الله، فكيف تقيس مباحا على محرم؟

قال محمد: فكيف يصنع بصاحب السفينة؟

قال الشافعى: آمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل، ثم أقول له: انزع اللوح وادفعه إلى صاحبه.

قال محمد: قال النبى ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام».

قال الشافعى: من ضره؟ هو ضر نفسه.

ثم قال الشافعى: ما تقول فى رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج

فى غاية الرذالة، ثم أولـدها عشرة، صـاروا كلهم قضاة سـادات أشرافا خطبـاء، فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين شهدا بأن هذه الجارية التى هى أم هؤلاء الأولاد مملوكة له، ماذا تعمل؟

قال محمد: أحكم بأن هؤلاء الأولاد مماليك لذلك الرجل.

قـال الشـافـعى: أنشـدك الله، أى هذين أعظم ضـررا: أن تقلع السـاحـة وتردها لمالكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد؟

فانقطع محمد بن الحسن.

هذه المناظرة وأمثالها التى كانت تجرى بين هـذين العلمين تشير إلى أن الشافعى لم يكن مجرد تلميـذ لمحمد، بل كان عالما ناضجا، طويل الباع، وإنما كـان سعيه لمحد بن الحسـن على سبـيل الاستـزادة من العلم، والتعـرف على وجوه الرأى، والتـبرك بلـقاء الشيوخ، والتعرف عليهم، وإن فى ذلك لأعظم الفوائد.

تعلق محمد بن الحسن بالشافعى

لقد أحب محمـد بن الحسن الإمام الشافعى حبا شـديدا حتى إنه آثره على الخليفة ذات يوم... ذلك أن محـمداً امتطى صـهوة جواده فى طريـقه للقاء الخليـفة، وإذا به يلتقى بالشافعى وجها لوجه، فيتـرجل الإمام فورا، ويعتنق الشافعى، ويعود منصرفا به إلى داره، ويصر الشافعى أن يمضى محمدا فى طريقه[1].

ولكن محـمدا أصر أيضـاً على أن يضرب صفـحا عن قـصده ويؤثر الجلوس إلى الشافعى، ومـا ذاك إلا لأن الشافعى قد بلغ من نفس مـحمد بن الحسن منزلة رفـيعة، وتبوأ فى قلبه مكانا ساميا.

وإذا كنا بصدد الحديث عن محـمد بن الحسن فإننا لا ننسى أن محمـدا كان يتمتع بشخصية عربية شجاعة، تعتز بنفسها وتحافظ على كرامتها.

يقال: إن الخليفة الرشـيد دخل يوما على مجلس من القوم فيهم مـحمد بن الحسن فقام الجميع ماعدا محمد بن الحسن، فانصرف الرشيد وفى نفسه شىء.

(١) كانت هذه الحادثة فى لقاء آخر تم بين الشافعى ومحمد، فى أيام محنة الشافعى التى تعرض لها.

وما لبث القوم إلا قليلا حتى جاء رسول يطلب محمد بن الحسن، فظن الجميع أن الرشيد سوف ينتقم منه، ولكن ذلك لم يحدث.

فقد سأل الرشيد محمدا: لماذا لم تقم كما قام غيرك؟

فأجاب محمد: لقد كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها، إنك أهلتنى للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة، ثم إننى سمعت أن ابن عمك رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار»[1].

أريحية الشيوخ

وإننا لنعجب من سير هؤلاء الأعلام من العلماء الذين كانوا يغدقون على تلاميذهم من أموالهم ويعلونهم، ويشاطرونهم أرزاقهم، بل كثيرا ما يؤثرون تلاميذهم على أنفسهم وأولادهم.

إنها المثالية الكاملة، والأريحية العظيمة، وقد لمسنا ذلك فى أبى حنيفة الذى كان يقوت تلاميذه ويعولهم ويشركهم فى نعمته، ويقول لهم: هذا رزقكم أجراه الله لكم على يدى، فلا من لى عليكم.

ولمسنا ذلك فى مالك ـ رضي الله عنه ـ الذى شاطر الشافعى ما أفاءه الله عليه، وقال له: لقد أعطانى الله فى هذه الليلة مائة مثقال أبقيت لعيالى نصفها وجئتك بنصفها، وسيشاطره نعمته بعد ذلك.

وهذا محمد بن الحسن يعرض على الشافعى أن يبقى ويشاطره نعمته، ولكن الشافعى يأبى ويقول: ما جئت لعرض الدنيا، ولو كان هدفى ذلك ما خرجت من بيتى، إنما جئت لتحصيل العلم والضرب من أجله فى الأرض فأعطاه محمد بن الحسن كل ما يملك من مال سائل.

شتان بين علماء اليوم وعلماء الأمس!!

ولم يكن هذا آخر لقاء بين الشافعى ومحمد، فسوف تكشف الأحداث أن هناك لقاء آخر تم بين هذين العلمين فى بغداد فى مجلس الرشيد، وستزداد الصلة قوة ومتانة ووثوقا.

---

(١) الأئمة الأربعة د/ مصطفى الشكعة ص ٥١٩.

الفصل الثالث

شيوخ آخرون للشافعى

سفيان بن عينة
مسلم بن خالد الزنجى
وكيع بن الجراح
ابراهيم بن أبى يحيى
الماجشون

شيوخ آخرون للشافعى

يحدث الرواة أن هناك شيوخا كثيرين للشافعى وهذا حق، فإن شخصية الشافعى الهائمة فى تحصيل العلم لا يمكن أن تقف عند حد الاقتناع بعلم واحد أو اثنين من العلماء مهما بلغ كلاهما من سعة العلم وفيضه.

حقا كان الإمام مالك بحرا زاخرا، وموسوعة علمية نادرة، وكذلك كان محمد بن الحسن الشيبانى، ولكن الطالب الطموح تواق دائما إلى المعرفة وطلب المزيد، والنبى ﷺ يقول: «طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال».

ومن الشيوخ الذين تلقى عليهم الشافعى.

سفيان بن عيينة

وهو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى، مولى امرأة من بنى هلال بن عامر، رهط ميمونة زوج النبى ﷺ.

أصله من الكوفة، وانتقل به أبوه إلى مكة حيث أقام بها، وأصبح عالمها المتفرد فى وقته.

وسبب انتقال أبيه من الكوفة إلى مكة أن أباه كان من عمال خالد بن أبى عبد الله القسرى أيام أن كان واليا على العراق، فلما عزل خالد وتولى بعده يوسف بن عمر الثقفى أخذ يطلب عمال خالد، فهربوا، وكان ممن هرب عيينة والد سفيان، ولجأ إلى مكة، ونزل بها.

تلقى سفيان بن عيينة العلم على يد الزهرى، وأبى إسحاق السبيعى وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر، وأبى الزناد وعاصم بن أبى النجود، والأعمش، وعبد الملك بن عمير، وغيرهم من الأئمة الأعلام فى وقتهم.

كما تلقى عنه الشافعى وشعبة بن الحجاج، ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة، وكثير غير هؤلاء.

حج سفيان بن عيينة سبعين حجة، أخبر ابن أخيه عنه قال: حججت مع سفيان آخر حجة حجها سنة سبع وتسعين ومائة، فلما كنا بجمع، وصلى استلقى على فراشه ثم قال: قد وافيت هذا الموضع سبعين عاما، أقول فى كل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإنى قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك، فرجع فتوفى فى السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ودفن بالحجون.

وكان سفيان إماما عالما، ثبتا، زاهدا، وزعا، مجمعا على صحة حديثه وروايته.

من فراسته

روى ابن خلكان قال: خرج سفيان يوما إلى درسه وهو ضجر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد، وجالس هو أبا سعيد الخدرى، وجالست عمرو بن دينار، وجالس هو ابن عمر - ﷺ - وجالست الزهرى، وجالس هو أنس بن مالك - حتى عد جماعة، ثم إنى أجالسكم؟؟

فقال له حدث فى المجلس: أتنصف يا أبا محمد؟

قال: إن شاء الله تعالى.

فقال: والله لشقاء أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا، فأطرق، وأنشد قول أبى نواس.

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... من داء الكلام
إنما السالم من ... ألجم فاه بلجام

فتفرق الناس، وهم يتحدثون برجاحة الحدث، وكان ذلك الحدث يحيى ابن أكثم التميمى.

فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة السلاطين.

وتحققت فراسة سفيان فعلا. فأصبح يحيى وزيرا للخلفاء.

وكانت تلمذة الشافعى لسفيان فى مكة، قال عنه الشافعى: ما رأيت أحداً فيه من آلة الفتيا ما فى سفيان، وما رأيت أكف منه عن الفتيا.[١]

ويرجح أن تكون تلمذة الشافعى له بعد عودته من رحلاته واستقراره بمكة. وإن كان بعض الرواة يذكر أنه من أوائل الشيوخ الذين التقى بهم، وأنه كان شيخه قبل رحيله إلى مالك.

ومن شيوخه مسلم بن خالد الزنجي

وهو مسلم بن خالد بن سعيد بن جرجة، أحد الأئمة الأعلام فى مكة كان مولى لآل سفيان بن عبد الأسد المخزومى، كانت ولاية موالاة لا عتاقة، وأصله من الشام رحل إلى مكة وأقام بها. س

ولقب الزنجى غلب عليه، وليس بسبب لونه، فقد كان أبيض مشربا بحمرة... أخبر أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى عنه أنه كان فقيها عابدا يصوم الدهر، ويكنى أبا خالد.

توفى بمكة سنة ثمانية ومائة فى خلافة هارون الرشيد[٢].

وبعض الرواة يقولون: إن تلمذة الشافعى للزنجى كانت مبكرة، كانت قبل أن يتوجه إلى المدينة لملاقاة مالك، وقد ذكرنا أن من الروايات التى حركت همته للفقه أن قائلا لفت نظره إلى ذلك فأثر ذلك فيه وهزه وسارع بمجالسة مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة، وعلى صحة الرواية فإن تلمذته للزنجى كانت عقب عودته من بادية هذيل مباشرة.

وعلى أى فقد أفاد الشافعى من الزنجى وروى عنه، وكان له أثر كبير فى حياته، ولقد أعجب بحصافة الشافعى ومقدرته، فأذن له فى الإفتاء وهو ابن أربع عشرة سنة.

وكيع بن الجراح

والتقى فى الكوفة فى أثناء إقامته فيها بوكيع بن الجراح، وأخذ عنه.

وهو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدى بن سفيان بن الحارس بن عمرو ينتهى نسبه إلى عامر بن صعصعة، ويكنى أبا سفيان.

(١) الطبقات الكبرى ٥/ ٥٨٦.

(٢) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ١/ ٣٧٥ ـ الطبقات الكبرى ٥/ ٥٨٤.

حج سنة ست وتسعين ومائة فى خلافة الأمين بن هارون الرشيد، ومات فى المحرم سنة سبع وتسعين ومائة[١].

كان من أئمة الكوفة الذين يشار إليهم بالبنان، ووصفه الذهبى بأنه أحد الأعلام.

قال عنه الإمام أحمد: ما رأيت أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع، وكان يحيى بن أكثم يقول عنه: صحبت وكيعا فكان يصوم الدهر، ويختم كل ليلة[٢].

ولو كيع مؤلفات منها: كتاب السنن ـ أشار إليه ياقوت.

ولابد أن يكون وكيع قد ترك أثره فى الإمام الشافعى، وهو الذى كان يبثه شكواه، ويتنصحه فيما يحزبه من أمور، وهو الذى يقول عنه الشافعى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونر الله لا يهدى لعاصى[٣]

وتلمذته له كانت فى الكوفة فى أثناء رحيل الشافعى إليها بعد خروجه من المدينة.

ومن شيوخه: هشام بن يوسف ويكنى أبا عبد الرحمن، وأصله من الأبناء أى أبناء الفرس الذين تناسلوا فى اليمن بعد إخراج الحبشية منها.

وكان هشام قاضيا باليمن، تتلمذ الشافعى له أيام أن كان فى اليمن

وروى يوسف هذا عن معمر، وعن ابن جريج، ومات باليمن سنة سبع وتسعين ومائة[٤].

ومن شيوخه: إبراهيم بن أبى يحيى، وكان من أئمة المدينة.

التقى به الشافعى فى المدينة أيام أن كان يختلف إليها. وكان إبراهيم يميل إلى مذهب المعتزلة، ولكن الشافعى لم يرتض هذا المذهب وعدل عنه، ولذلك عتب عليه

(١) الطبقات الكبرى ٦/ ٤١٥.
(٢) دول الإسلام ١/ ١٢٤ ـ أى يختم القرآن.
(٣) ديوان الشافعى ص ٨٨ تحقيق د/. محمد عبد المنعم خفاجى.
(٤) الطبقات الكبرى ٥/ ٦٢٤.

إبراهيم فقال له: تجالسوننا وتسمعون منا، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه. وقيل: إنه قال ه هذه حين عزم الشافعي على التوجه إلى اليمن عاملا فيها.

إن جلوس الشافعي إليه لا يعني أنه انتحل مذهبه. بل كان بغية الإفادة ومعرفة مذاهب العلماء، ولكنه له شخصيته المستقلة التي توازن بين الآراء والمذاهب، فإذا لم يرتض شيئاً رفضه، وقد رأينا كيف أجاب على الأسئلة التي طرحها عليه محمد بن الحسن، وطلب منه أن يجيب عليها من الموطأ، كيف أنه أجاب عنها من الكتاب والسنة والإجماع، ولم يلتزم بما جاء في الموطأ.

ومن شيوخه في اليمن أيضا مطرف بن ماذن، ويكنى أبا أيوب.

وكان من الذين تولوا القضاء بصنعاء، ولا يتولى القضاء إلا من أهلته المنزلة العلمية لذلك.

ولم يستمر مطرف في اليمن طويلا، ولكنه ارتحل عنها، ومات بالرقة في خلافة هارون الشريد[١].

وقيل: إن مطرفا هذا كان أحد الذين وشوا بالشافعي فأدى إلى محنته ولكن هذا كلام مردود بدليل أن الشافعي روى عنه ولا يروي الشافعي عن كذاب.

ومن شيوخه: عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون

ولعله تتلمذ له في المدينة في أثناء إقامته فيها، وكان عبد العزيز إماما فقيها.، وله ابن فقيه أيضا اسمه عبد الملك، وقد تتلمذ عبد الملك للإمام مالك، وكان كفيفا، ويقال: إنه عمي في آخر حياته.

وكان عبد الملك من الفصحاء المعجبين بالإمام الشافعي يجمع بينهما رواية الغريب وحب الأدب، روى أنه كان إذا ذاكره الإمام الشافعي لم يعرف الناس كثيراً مما يقولان، لأن الشافعي تأدب بهذيل في البادية، وعبد الملك تأدب في خؤولته من كلب بالبادية[١].

(١) الطبقات ٥/ ٦٣٢.

ويبدو ان تلمذة الشافعى لعبد العزيز كانت فى المدينة قبل أن ينتقل عبد العزيز إلى بغداد فإنه قد انتقل إليها وأقام بها حتى مات سنة أربع وستين ومائة، وقد روى عنه أهل بغداد كثيرا حتى لتعد رواية العراقيين عنه أكثر من رواية المدنيين عنه، ويقول عنه صاحب الطبقات: إنه ثقة كثير الحديث[٢].

ومن شيوخه بالمدينة الدراوردى، واسمه عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبى عبيد، ويكنى أبا محمد، وهو مولى للبرك بن وبره، وكان أصله من داراورد، وهى قرية بخراسان، ولكنه ولد بالمدينة ونشأ بها، وسمع العلم والأحاديث من شيوخها، وصار علما فيها يقصده الناس للعلم، ولم يزل بالمدينة حتى توفى سنة سبع وثمانين ومائة[٣].

ومن شيوخة بالمدينة أيضاً عبد الله بن نافع الصائغ

مولى لبنى مخزوم، وكان قد لزم مالك بن أنس لزوما شديدا وأخذ عنه، وكان مالك لا يقدم عليه أحدا، وكان من الطبيعى أن يأخذ عنه الشافعى ويستفيد منه، وقد توفى عبد الله بن نافع بالمدينة فى شهر رمضان سنة ست ومائتين[٤].

وهناك شيوخ آخرون تلقى عنهم الشافعى غير هؤلاء، نذكر منهم:

محمد بن على بن شافع وهو ابن عم والده.

وعبد الله بن الحارث المخزومى.

ومحمد بن إسماعيل بن أبى فديك.

وسعيد بن سالم القداح.

وإسماعيل بن جعفر. ويحيى بن أبى حسان، وهو من أصحاب الليث بن سعد، وغيرهم.

---

(١) وفيات الأعيالن ١/ ٥١٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٧/ ٣٥١.

(٣) الطبقات الكبرى ٥/ ٥٠٦.

(٤) المرجع السابق ص ٥٢٤.

وجرت على لسان الشافعى مصطلحات تعنى شيوخه الذين روى عنهم.

فإنه إذا قال: أخبرنى من لا أتهم فإنه يعنى بذلك إبراهيم بن أبى يحيى، وإذا قال: أخبرنى الثقة عن الليث بن سعد فإنه يعنى يحيى بن حسان أستاذه فى اليمن، وقد كان يحيى تلميذا لليث.

وإذا قال أخبرنى الثقة عن ابن جريج فإنه يريد مسلم بن خالد(١).

ولابد أن يكون قد التقى فى رحلاته الكثيرة التى كان لا يكف عنها بكثير من الشيوخ، ورحلاته لم تكن فى طلب جاه أو منصب، ولكنها كانت فى سبيل طلب العلم ولقاء الشيوخ، ولا يخلو مكان يذهب إليه من شيوخ مشهورين شهدهم العصر الذى كان يعيش فيه.

لقد كان بمكة الإمام الجليل عبد العزيز بن أبى رواد، وكان إلى جانب علمه عابدا وتوفى سنة تسع وخمسين ومائة.

وكان فيها الفضيل بن عياض الإمام الورع الزاهد وقد جاور بمكة وتوفى بها سنة سبع وثمانين ومائة.

وكان فى عصره شعبة بن الحجاج العتكى الواسطى شيخ البصرة الذى قال عنه الشافعى: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق، ولكنه من المرجح أن الشافعى لم يلقه، ولكن تقريره المذكور عنه كان نتيجة إطلاعه.

وكان فى عصره نافع بن أبى نعيم المدنى أحد القراء السبعة مات تسع وستين ومائة بالمدينة ودفن بالبقيع، ولا يبعد أن يكون الشافعى لقيه وأخذ عنه فى أثناء وجوده فى المدينة.

وكثير غير هؤلاء الأعلام الذين يفوقون الإحصاء.

وكانت الحقبة التى عاش فيها الشافعى حقبة مشهورة بالعلم وازدهاره.

---

(١) الإمام الشافعى ناصر السنة ــ عبد الحليم الجندى ص ٧٥.

ازدهار العلم

لقد اعتنى العباسيون بازدهار العلم وشجعوا على طلبه، وكافأوا على التقدم فيه، لأنهم رأوا أن العلم هو أساس تقدم الدولة، ويعد العصر العباسى وبخاصة الصدر الأول منه أزهى عصور اللغة العربية، بلغت فيه اللغة العربية ذروة الكمال رصانة واتساعا وجمعا لما تفرق من محاسن اللغات، وصارت فيه لغة الدين والعلم والأدب، وترجمت إليها علوم الدنيا من الطب والنجوم والكيمياء والميكانيكا والفلسفة والمنطق والسياسة وتدبير المنزل، حتى أصبحت العلوم فى ذلك العصر تتجاوز ثلثمائة فى الشرع واللغة والتاريخ والأدب وغيرها، ومازال هذا العصر هو المثل الأعلى الذى يؤمل اليوم كل محب للغة أن يدور بها الفلك دورته، فتعود إلى ما كان لها فيه من سلطان ومكانة سامية.

والذى حدا بالعرب إلى العناية بالعلوم ـ كما يقول الأستاذ محمود مصطفى:

هو الضرورة الحافزة؛ إذ لا يعقل أن أمة يتعاظم عمرانها وتتسع رقعة ملكها كما حدث للأمة العربية ثم تبقى مستغنية عن العلم غير محسة بالحاجة إليه فهذه الضرورة المدنية تدفعهم إلى طلب الطب للعلاج، وإلى معرفة الحساب لضبط جبايتهم، وإلى الهندسة لإقامة مبانيهم، وهكذا لا ترى علما من العلوم الكونية من فلك وكيمياء وفنون حرب وتدبير ملك إلا والمدنية داعية إليه موجبة له.

ثم علوم الدين وغيرها من النفسيات تدعو إليها ضرورة الاجتماع، حتى تضمن السعادة لأمم تزدحم بها مواطنها، وتكثر مطالبها، وتتعدد علاقاتها، ولعلوم اللسان عند العرب شأن خاص إذ كان كتاب دينهم وهو القرآن الكريم بالعربية، فنشأت علومها من نحو ولغة وغيرها فى خدمة القرآن حتى يظل واضح البيان مفهوم العبارة.

وقد قيض الله للعلم من نصروه فى جميع فترات هذا العصر، فحين كانت الدولة عربية خالصة فى أيام الخلفاء الأول ـ وأيام المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم والشافعى عاش فى هذه الفترة ـ كان يحدوهم إلى العناية بالعلم حرصهم على بقاء دولتهم؛ إذ العلم سياج الدول والضامن لبقائها، وقد ساعد على ذلك قوة الدولة وكثرة جبايتها، فسهل على الخلفاء ـ وهم ذوو السلطان المطلق ـ أن يبذلوا فى سبيل العلم، فألهبوا

الهمم بعطاياهم، حتى رأينا أنه لم يمض على دولتهم قرن من الزمان حتى كانت قد وضعت جميع العلوم الإسلامية، وترجم أكثر ما عرف من علوم الأمم القديمة المدنية. فاجتمع للعرب علم الأوائل والأواخر، وانصرفت الهمم إلى تحصيل هذه العلوم والزيادة عليها، حتى أتوا فيها بالعجب العجاب[(١)].

الشافعى ابن عصره

والشافعى كان نتاج عصره، لديه الاستعداد الذهنى والنفسى، وقد فطره الله تواقا للعلم، وقد رأى حوله تزاحم الناس حول العلماء، وكيف بلغ هؤلاء العلماء من منزلة فى نفوس الناس وبلاط الخلفاء.

إلا أن الشافعى لم يكن هدفه من تحصيل العلم بلوغ تلك الغاية، إن فيه بقية من مثل، كان يحرص على طلب العلم لغاية العلم، وكان يرى فى بذل نفسه له تقربا إلى الله تعالى، وأهم ما كان يطلبه الفقه الذى هو رأس مال الحكمة وبه يصل الإنسان إلى الله، وكان يظن أن ما يطلبه فى بدء حياته وسيلة إلى التفقه فى كتاب الله تعالى ومعرفة أسراره، فقد كان العلماء يستعينون على فهم لغة القرآن بالشعر، وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إذا سئل عن معنى كلمة فسرها بما يرويه من شعر.

ابن عباس وتفسيره لغة القرآن

روى عبد الله بن أبى بكر بن محمد عن أبيه قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق: لنجدة بن عويمر:[(٢)] قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إننا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله تعالى فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإنما أنزل الله ـ تعالى ـ القرآن بلسان عربى مبين ـ فقال

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى ـ محمود مصطفى ص ١٧٥.

(٢) نافع بن الأزرق رئيس طائفة من الخوارج اسمها الأزارقة نسبة إليه، كان هو أميرهم وفقيههم ومفتيهم توفى سنة ٦٥ هـ.

ونجده بن عويمر الحرورى كان رئيسا لفرقة من الخوارج اسمها الطائفة النجدية، نسبة إليه أيضا، توفى سنة ٦٩ هـ.

ابن عباس: سلانى عما بدا لكما.

فقال نافع: أخبرنى عن قول الله تعالى ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ (المعارج: ٣٧).

قال ابن عباس: العزون: الحلق الرقاق.

قال: وهل تعرف ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص، وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول مبزة عزينا؟

قال: أخبرنى عن قوله ـ تعالى ـ ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥).

قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى[١]

وظل نافع يسأل، وابن عباس يجيب حتى استفرغ نافع كل ما عنده، ووجد ابن عباس بحرا طاميا.

لذلك أقبل الشافعى على اللغة والشعر فى بدء حياته بالعلم.

وبعد أن أخذ الشافعى حظه من اللغة أقبل على الفقه الذى رأى فيه الغاية المثلى استمع إليه يقول:

كل الالعلوم سوى القرآن مشغل إلا الحديث وعلم الفقه فى الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين[٢]

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٦٨.

(٢) ديوان الشافعى ص ١٢٤.

الفصل الرابع

رحلة الشافعى

الشافعى يرفض القضاء
من يؤلف كتاب فى المسجد
الشافعى فى الشام
مدينة حران
الشافعى يوزع ما معه

رحلة الشافعى

وقد رأينا كيف كان الشافعى يرحل فى طلب العلم، وإنه ليتحمل فى سبيل ذلك مخاطر ومشقات، ولكن الله كان يعيمنه على ذلك وييسر عليه السبل.

ففى أثناء ذهابه إلى المدينة من مكة قيض الله له الركب اليثربيين الذين أطعموه وحملوه فوق جمل أورق.

وفى أثناء ذهابه إلى الكوفة هيأ الله له الإمام مالكا الذى اقتسم معه ما أفاءه الله عليه، واكترى له الراحلة التى أوصلته إلى الكوفة.

وفى أثناء خروجه من الكوفه هيأ الله له محمد بن الحسن الذى أعطاه كل ما فى خزائنه من دراهم وقدرها ثلاثة آلاف درهم، وهى ثروة لا بأس بها.

لقد خرج من الكوفة طوافا فى بلاد العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم، وعاد إلى العراق مرة أخرى، وكانت سنه إذا ذاك إحدى وعشرين سنة، وصادف ذلك أول خلافة هارون الرشيد.

لقد طالت هذه الرحلة التى طوف فيها بأقطار عدة، وبلغت عدة سنوات يمكن تقديرها بسبع سنوات أو أقل قليلا.

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديب ... وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا مـــا قنعت بالقـــوت عـمـــرى فلمـــاذا أزور زيدا وعـــمـــر؟؟[1]

وصل الشافعى إلى بغداد، ودخل من أحد أبوابها وبدأ يخطو فى داخلها، وإذا بغلام لا يعرفه يتقدم إليه، ويلاطفه الكلام، غير يسأله عن اسمه ونسبه فيخبره الشافعى بذلك، فيثبت الغلام المعلومات التى حصلها فى لوح ثم يحييه وينصرف.

وأوى الشافعى فى بغـداد إلى أحد المساجد. وبعد أن صلى العشـاء الآخرة نام فيه ونام أيضاً بعض المنقطعين وأبناء السبيل.

وفى منتصف الليـل فوجئ بالشرطة تكبس المسـجد، وأخذوا يسـألون كل شخص ويتفرسون فـيه حتى وصلوا إلى الشافعى، فإذا بهم يقـولون: أنت ـ طلبتنا ـ وطمأنوا كل من فى المسجد، وقالوا للشافعى: أجب أمير المؤمنين.

وفكر الشافعى فى أمره، لماذا يطلبه أمير المؤمنين؟ ولماذا هو بالذات وليس هناك من جناية جناها أو حدث أحدثه؟

ولكنه أسلم أمره إلى الله، وتقدم مع الشرطة غير ممتنع، حتى وصلوا إلى قصر الخلافة.

وتقدم إلى الخليفة رابط الجأش، مـجتمع النفس، ثابت القلب، وألقى السلام على أمير المؤمنين فى لغة فصيحة ونبرة قوية.

ورد هارون الرشيد السلام على الشافعى بمثله، وأعجب بفصاحة الشافعى واستطاع أن يميز بصـفاء ذهنه أن هذا الرجل متقـول عليه بالباطل، وأنه متهـم بغير دليل، وأنه مأخوذ بشبهة.

نظر الرشيد إلى الشافعى وسأله: أنت تزعم أنك من بنى هاشم؟

فأجاب الشافعى فى ثقة: يا أمير المؤمنين، كل زعم فى كتاب الله باطل، وقد جاء فى الحديث: «زعموا ـ مطية الكذب».

فسأله الرشيد عن نسبه، فأقبل الشافعى يتلو سلسلة نسبه حتى وصل إلى آدم أبى البشر.

---

(١) ديوان الشافعى ص ٧٦.

فبهرت هذه المعرفة الرشيد، وجعلته ينظر إلى الشافعى فى دهشة وعجب، إن الرجل منا يقف عند حدود بعد عدة آباء، وهذا تقصير من غير شك، أما الشافعى فلم يكتف بأن يصل إلى الجد السابع أو الثامن أو العاشر بل يتجاوز قريشاً إلى عدنان إلى إسماعيل، ومازال يصعد فى بيان واضح وأسلوب ناصع حتى ألحق آدم بالطين.

ولئن دل ذلك على شىء فإنما يدل على اعتزاز بالنسب من جهة، وإلى علم واسع من جهة أخرى.

وأثنى الرشيد على الشافعى، وقال له: لا تكون هذه الفصاحة حقا إلا فى رجل من بنى المطلب.

الشافعى يرفض القضاء

لقد ظفر الرشيد برجل من أبناء عمومته له مزايا عظيمة، وفضائل مرموقة، وحق له أن ينتفع بهذه المواهب، فعرض عليه أن يوليه القضاء، قال له: هل لك أن تتولى قضاء المسلمين وتشاطرنى ما أنا فيه، ولك على أن أطلق يدك فى تنفيذ الأحكام على ما شرعه الله تعالى فى قرآنه الحكيم، وجاءت به السنة النبوية المطهرة وأجمعت عليه الأمة؟؟

ولو كان الشافعى ممن تستميله الدنيا لقبل هذا العرض فورا بدون تردد، ولكنه نذر نفسه للعلم، وهو يدرك أن القضاء قد تكون فيه ممالأة للسلطان ولو بدون قصد، فاعتذر فى لباقة، وقال للرشيد: يا أمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبدا، فبكى الرشيد.

إن الشافعى فى رفضه القضاء قد تمثل بالإمام أبى حنيفة الذى عرض عليه القضاء فأبى، وعذب فى سبيل ذلك ولم يقبل، بل إنه استشهد فى محبسه، ذلك أن القضاء فتنة، وكان رد أبى حنيفة على أبى جعفر المنصور حين أراد أن يوليه القضاء: والله يا أمير المؤمنين ما أنا مأمون فى الرضا فكيف أكون مأمونا فى الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك.

والإمام الشافعى عالم، وقد حفظ حديث النبى ﷺ الذى يقول:

«القضاة الثلاثة، اثنان فى النار وواحد فى الجنة: رجل علم الحق فقضى به فهو فى الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار»[(١)].

كان الشافعى يرى أن القاضى إنما هو واقف على شفير جهنم، وإنما هو على وجل دائما، وكيف يأمن على نفسه الحيف أو التطلع، وهو الذى يقول: «من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق»[(١)].

ورفض الشافعى عرض الخليفة:

وقال الخليفة له: ألا تقبل من عرض من دنيانا شيئاً؟

ولم يشأ الشافعى أن يرد رغبة الخليفة فى هذه المرة، فقبل، ووصله الخليفة بألف دينار قبضها، ولم يصل إلى باب القصر حتى كان قد وزعها على خدم السلطان وحشمه، ولم يبق منها إلا كقدر نصيب واحد منهم.

إنه السخاء الذى ركب فى طبعه، والدنيا فى يده لا تساوى شيئا، لأنه يؤمن بأن المال لا قيمة له إلا فى إنفاقه، ولا معنى له فى إمساكه.

وعاد الشافعى إلى المسجد الذى قبض عليه فيه، ولم يكن الفجر قد لاح بعد.

الشافعى يؤلف كتابا فى المسجد

وحانت صلاة الفجر، وتقدم إمام المسجد، وهو غلام ناشىء فصلى بهم صلاة الفجر وكان جيد القراءة، ولكنه سها فى الصلاة، ولم يعرف كيف يعالج الموقف فيسجد للسهو، وخرج من الصلاة.

فقال له الشافعى: يا غلام أفسدت علينا وعلى نفسك الصلاة فأعدها.

(١) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير عن بريدة، وروى مثله عن ابن عمر.

(١) ابو حنيفة ـ عبد الحليم الجندى ص ٢٠٠.

فأعاد الصلاة مسرعا.

وبعد الانتهاء من الصلاة قال للإمام: ائتنى بورق أكتب لك أحكام السهو فى الصلاة وكيف تدخل فى الصلاة تخرج منها.

قال الشافعى: فسارع إلى ذلك، وفتح الله على قريحتى، وكشف عن صدرى، وسال بالعلم قلمى، وألفت كتابا شيدته على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين، يدور حول موضوع السهو فى الصلاة وقد طال هذا الكتاب، وسميته باسم صاحبى هذا فهو كتاب الزعفران. ثم مازال الشافعى يضيف إلى هذا الكتاب حتى بلغ أربعين جزءا، وقد أتمه فى ثلاث سنوات.. وهو أول كتاب ألفه.

الشافعى فى الشام

كانت ذكريات المدينة لا تزال تعيش فى صدر الشافعى وإنه ليتنسم أخبار مالك الذى شعر فى جواره بأعظم إكرام، لقد أضفى عليه من حنانه وعطفه وبره ما جعله يشعر بأنه فى حمى أبيه، ولقد أنزله فى بيته وبين أولاده ثمانية أشهر لم يحس فى خلالها بأنه ضيف، بل أحس بأنه رب المنزل، وكان مالك معه فى غاية التواضع، حتى لقد حمل له زاده فى ليلة سفره وسار معه مودعا له، واكترى له الراحلة وزوده بالمال، فكيف ينسى الشافعى وهو الحسيب النسيب هذه الأيادى البيضاء؟

كان يستخبر الوافدين من قبل الحجاز لعله يتعرف مع بعضهم على أخبار عن شيخه الأثير مالك.

وفى يوم لقى وفدا من الحجيج قادما من المدينة. فاستوقفهم، وقصد قائد القافلة ليسأله عن أهل الحجاز عامة، وعن مالك خاصة.

وكان جواب القائد مطمئنا للشافعى على شيخه وعلى الناس جميعا قال له: إن الخير يعم المكان، وإن لمالك الآن ثلثمائة جارية، يبيت عند الواحدة ليلة، فلا يبيت عندها مرة أخرى إلا بعد عام وهذه مغالاة بعيدة يصعب على العقل تصديقها.

أى نعمة هذه؟ لقد فتح الله أمام مالك مغاليق الرزق. وإنه لجدير بذلك، إن النعمة

عند الكريم لها مذاق خاص، لأنها تأخذ طريقها منه إلى غيره من المعوزين وأبناء السبيل، وإنه ليشرك معه فيها طلابه وأحبابه وجيرانه وغيرهم من الناس، فتتصاعد ألسنة الحامدين والشاكرين لله، داعين لصاحب النعمة أن يضاعفها الله له، ويثبه على ما قدم جزيل الثواب وعظيم الجزاء واشتاقت نفس الشافعى لرؤية مالك، لقد رآه فى حال بؤسه، وكان غاية فى الرضا والكرم والصبر. فكيف يكون فى حال نعمته وغناه؟

لقد كان مالك متخلقا بأخلاق النبيين والصديقيين الذين لا يثنيهم الفقر عن مكارم الأخلاق ومطبقا قول النبى ﷺ «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»(١).

وقوله ﷺ : «أفضل الصدقة جهد المقل وابدأ بمن تعول»(٢).

وقوله ﷺ : «أفضل الصدقة وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»(٣).

وتحركت الأشجان فى قلب الشافعى، واشتعلت الأشواق لرؤية شيخه، ولكن كيف يرحل والشقة بين بغداد والمدينة بعيدة؟

وانطلق إلى صديقه الزعفرانى الذى ألف له كتاب السهو، وقال له: أهناك من المال ما يصلح للسفر؟؟

وكان الزعفرانى قد تعلق قلبه به، وأنس إليه كما أنس محمد بن الحسن فى الكوفة به فأراد أن يستبقيه، وقال له: إنك لتوحشنى وحشة شديدة، بل إنك ستوحش أهل العراق عامة ببعدك عنهم.

ولما رأى إصرار الشافعى على الرحيل قال له: أما المال فكل ما تحت يدى رهن إشارتك، وهو ملك لك.

فقال الشافعى: وكيف تعيش؟

---

(١) اخرجه أبو نعيم فى الحلية والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة.
(٢) أخرجه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة.
(٣) اخرجه أحمد فى مسنده والنسائى عن أبى هريرة.

فقال الزعفرانى قولا حكيما، وأطلق عبارة صائبة هى: الجاه أوسع من المال.

نعم يستطيع الإنسان أن يعيش بجاهه وأخلاقه دون أن يخشى العيلة، والرجل الكريم صاحب الخلق الرفيع كل أموال الناس أمواله، والحكماء يقولون: من أخذ وأعطى شارك الناس فى أموالهم، أما البخيل الشحيح الذى لا يعطى الحقوق فقلما يأمنه الناس ويتعاملون معه.

وأخذ الشافعى من صديقه حسب كفايته من المال، وودعه وانصرف، ميمما شطر الحجاز، ومخترقا ديار ربيعة ومضر، ومازال جادا فى سيره حتى وصل إلى حران فى ديار الشام.

مدينة حران

وحران بفتح الحاء وتشديد الراء مدينة عظيمة مشهورة تعد قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهى على طريق الموصل والشام والروم وسميت بذلك باسم هاران أخى إبراهيم عليه السلام، ثم عربت فقيل لها حران وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ (العنكبوت: ٢٦) إنه قصد حران، وفى قوله تعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٧١) هى حران.

وإن كان معجم البلدان قد تحدث عن حران بهذا الوصف فإن ابن جبير فى رحلته قال عنها عكس ذلك، قال: بلد لا حسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه، لا تجد فيه مقيلا، ولا تنفس منه إلا نفسا ثقيلا، قد نبذ بالعراء، ووضع فى وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة، أستغفر الله ــ كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم عليه السلام وله بقبليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك، فيه عين جارية، كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليهما، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرا للصالحين

المتزهدين، مثابة للسائحين المتبتلين[1].

وصل الشافعى إلى حران يوم الجمعة، وأراد أن يستعد للصلاة بالغسل على حسب السنة، فقصد الحمام.

وكان سفره قد طال، وطال معه شعره، وتشعث، فأراد أن يأخذ منه، فاستدعى الحلاق، وبدأ عمله فى شعره وأخذ القليل منه، ودخل قوم من ذوى اليسار الحمام، فترك الحلاق الشافعى قبل أن يكمل له الحلاقة، واتجه إلى هؤلاء الموسرين، حتى إذا فرغ منهم عاد إليه..

وخرج من الحمام وأراد أن يلقن هذا الحلاق درسا فى الأخلاق، لقد أعطاه أكثر ما كان معه من دنانير، نظر الحلاق مبهوتا إلى هذه الدنانير الكثيرة ولم يكن له بها عهد، وما كان ينتظر من هذا الرجل إلا دوانيق معدودة.

قال له الشافعي: خذ هذا المال، وإذا وقف بك غريب فلا تحقره.

إن الحلاق من أبناء الناس الذين يزنون أقدار الرجال بأزيائهم ومناظرهم، لا شأن لهم بعقول الناس ومكارمهم وأخلاقهم.

ولقد عجب الحلاق منذلك، وأغلب الظن أنه لام نفسه وأظهر الأسف،وأخذ فى الاعتذار حتى لفت بذلك نظر الغادين والراذحين.

وعلم الناس بما أغدقه الشافعى على الحلاق من مال، فاستنكروا ذلك، وقالوا: حسبه من الدراهم كذا وكذا. أما أن ينتقل الأجر من فئة الدراهم إلى فئة الدنانير فهو السفه بعينه.

ولكنه الشافعى قال لهم: إن ما قدمت له قليل، ولو أمكننى دفع أكثر من ذلك لفعلت.

يلتقى بأحد تلاميذه

وبينما هو كذلك إذ خرج من الحمام أحد الأعيان، وقدم له غلامه بغلة ليركبها،

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٨.

واسترعى اهتمامه اجتماع الناس فوقف يتأمل الموقف، وإذا عينه تقع على الشافعى، فنزل من فوق بغلته بعد أن استوى عليها، تقدم إليه قائلا:

أأنت الشافعى؟

قال الشافعى: نعم.

فأمر غلامه أن يقدم البغلة للشافعى وأقسم عليه أن يركب ليمضى إلى منزله.

ولم يسع الشافعى إلا الاستجابة، هذه كرامة من الله له، ولا يأبى الكرامة إلا لئيم.

وامتطى الشافعى صهوة البغلة، وسار الغلا م بجانبه وهو ممسك بزمامها حتى وصل إلى منزل الرجل.

ونزل الشافعى، وجاء صاحب المنزل فبالغ فى الترحيب بالشافعى وإكرامه.

وحين حان وقت الطعام مدت أمام الشافعى مائدة حافلة، وتولى صاحب المنزل بيده غسل يدى الشافعى. وانقبض الشافعى عن تناول الطعام، فسأله الرجل عما يقبضه فقال الشافعى: لقد بالغت فى إكرامى، تنازلت لى عن بغلتك، ورحبت بى فى منزلك، وقدمت لى هذه المائدة الحافلة بالطعام وأنا لا أعرفك.

لابد لى أولا أن أعرف من أنت؟ وكيف عرفتنى وأنا لا أعرفك؟

فتطلق ووجه الرجل وقال: أهذا ما شغل ذهنك أيها الإمام الفاضل؟

قال الشافعى: نعم.

قال الرجل: ألا فاعلم أننى أحد تلاميذك.

قال الشافعى: كيف؟

قال الرجل: أرأيت الكتاب الذى ألفته فى بغداد بخصوص سجود السهو؟

إننى سمعته منك ورويته عنك، فأنا تلميذك وأنت شيخى، إنك صاحب فضل

سابغ، وصدق من قال: من علمنى حرفاً صرت له عبدا.

انبسطت أسارير الشافعى، وتبدد همه، وقال لمضيفه: حقاً: إن العلم رحم بين أهله.

وأقبل على الطعام بشهية مفتوحة، ونفس مطمئنة. وظل الشافعى ضيفاً على صاحبه ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الثالث قال الرجل للشافعى: اعلم أن لى حول حران أربع ضياع هى أجمل حران، أكثرها غلة وأبهجها منظرا، وأشهد الله الذى لا إله إلا هو أنها هدية منى إليك لو اخترت المقام عندى.

ولكن أنى للشافعى أن يقبل وعرض الدنيا لا يشغله؟

قال الشافعى لمضيفه: ما لهذا قصدت، وما فارقت بلدى مكة إلا لطلب العلم، إن لى أما لا عائل لها سواى، ولا أخ لى يرعاها من بعدى، ومع ذلك فقد تركتها راحلا فى طلب العلم. فما تعرضه على ـ مع إغرائه لغيرى ـ لا أجد له قبولا عندى، وإن لك من قلبى موفور الشكر وعاطر الثناء.

وتحركت أريحية الرجل وقال: ما دمت قد رفضت المقام عندنا، وعزمت على الرحيل فمن حقك على أن أزودك من المال بما أقدر عليه، إن عندى فى هذه الصناديق، وأشار إليها، أربعين ألف درهم فخذها بارك الله لك فيها، وإنها لدون ما تستحق.

وألح الرجل على الشافعى فى قبولها، وما كان للشافعى أن يرد الهدية تأدبا بأدب النبى ﷺ فقبلها.

وودع الرجل ضيفه الشافعى أحر وداع، وزوده الشافعى بخالص الدعاء وأمطره جزيل الثناء.

الشافعى يوزع ما معه

عاد الشافعى من حران ثريا، معه أحمال من المال. وما تعود الشافعى أن يكون صاحب ثروة، ولن يكون، إن هذه الثروة التى معه من حق إخوانه وأصحاب الحاجة

الشافعى يوزع ما معه

عاد الشافعى من حران ثريا، معه أحمال من المال. وما تعود الشافعى أن يكون صاحب ثروة، ولن يكون، إن هذه الثروة التى معه من حق إخوانه وأصحاب الحاجة وطلاب العلم وأهل الحديث.

ولقيه فى طريقه من العلماء سفيان بن عيينة، ووقد كان أستاذه فى مكة ذات يوم.

ولقيه الأوزاعى وهو من الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، وهو صاحب مذهب كان بعض الناس يتمذهبون به، وكان منتشرا فى الشام وبعض الأقطار كما لقيه ابن حنبل، وكان حبيبا للشافعى أثيرا عنده وهو أحد تلاميذه.

فأفاض على هؤلاء مما معه من مال.

وسار فى طريقه إلى المدينة فما وصل إلى مدينة «الرمالة» حتى كان ما معه من مال قد نفد، ولم يبق منه إلا عشرة دنانير.

ما أكرمك يا شافعى، أربعون ألف درهم تنفقها فى طريقك إالى الحجاز، ولم يبق معك إلا هذا المبلغ اليسير، وياليته أيضا بقى!!

لقد اشترى بهذا المبلغ راحلة ركبها إلى المدينة المنورة، بعد رحلة استمرت ما يقرب من شهر.

بلغ المدينة فى وقت الأصيل.

وقصد من فوره المسجد النبوى، فصلى العصر ثم سلم على النبى ﷺ.

واتجه بنظره ناحية المكان الذى كان يجلس فيه مالك قبل خروجه من المدينة فجر يوم منذ عشر سنوات تقريبا أو تزيد.

ورأى كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر، مكتوب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ وحول الكرسى دفاتر لا يحيط بها العد.

وبعد قليل أحس بحركة وجلبة ملأت المكان، وانساب إلى أنفه عطر طيب ملأ

أرجاء المسجد، ونظر إلى جهة الباب الذى كان يدخل منه النبى ﷺ فإذا بمالك يدلف منه يحف به التلاميذ من كل جانب وهو يتقدمهم فى موكب نبيل.

واستقبله من كان جالسا من تلاميذه فى إجلال وتعظيم، وجلس على ذلك الكرسى، تغمره الجلالة والبهاء.

واستعد مالك لإلقاء درسه.

مالك يتعرف على الشافعى

وبدأ مالك درسه بمسألة فقهية حول جراح العمد، وكان الشافعى قد أخذ مجلسه فى مؤخر الصفوف، تفصله عن مالك مسافات طويلة.

وطلب مالك من تلاميذه الإجابة عن المسألة.

وهمس الشافعى فى أذن رجل بجواره بالإجابة عن المسألة، وطلب منه أن يجيب.

ووقف الرجل وأجاب، ولكن مالكا لم يأبه به وإن كان قد سمع إجابته، إنه يريد أن يسمع من المقربين منه، ولكنه سمع إجابتهم فلم يرتضها لأنها لم توافق الصواب، وقال: الصواب مع ذلك الرجل الذى أجاب أولا.

ثم ألقى مسألة ثانية، ففعل الشافعى مع الرجل مثلما فعل قبل ذلك، فأجاب الرجل، وأجاب المقربون من مالك ولكنهم لم يصيبوا وأصاب الرجل. فقال مالك: لقد أصاب الرجل. وأخطأتم ثم ألقى مالك مسألة ثالثة.

ولقن الشافعى الرجل الجواب فسارع إلى الإجابة، فى حين أخفق المقربون إلى مالك، فقال لهم: الحق مع ذلك الرجل، وقد أخطأتم أنتم الجواب.

وكان من حق هذا الرجل الذى أصاب فى إجابته على مالك أن يكرمه ويقربه، فأشار إليه أن تقدم، فليس مجلسك فى المؤخرة، بل مجلسك فى المقدمة.

وتقدم الرجل، فقال له مالك: اقرأت الموطأ؟

قال الرجل: لا.

قال له: هل لقيت ابن جريج؟

قال الرجل: لا.

قال له مالك: هل لقيت جعفر الصادق؟

قال الرجل: لا.

قال له: فمن أين لك هذا العلم الذى أجبت به؟

قال الرجل إن فى آخر الحلقة رجلا كان همس فى أذنى بالجواب فأجيب قال مالك للرجل: تأخر أنت، ومر صاحبك أن يتقدم.

وتقدم الشافعى، ودقق مالك النظر فيه، لقد مضت مدة طويلة منذ أن افترقا، ثم قال له مالك: أأنت الشافعى؟

قال الشافعى: نعم، يا سيدى أنا تلميذك الوفى.

فضمه مالك إلى صدره، ولعله تمثل بقول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وأحب مالك أن يبالغ فى إكرام تلميذه وصديقه، فنزل من فوق كرسيه، وأمره أن يصعد فوقه، ويكمل الدرس.

وهكذا نصب مالك تلميذه الشافعى إماما، وحق له.

ولم يقصر الشافعى فيما عهد إليه، وكان عند حسن الظن به، لقد ألقى أربعمائة سؤال عقب عليها بأربعمائة جواب.

لقد بلغ الشافعى من العلم منزلة رفيعة، لم يكن التغرب فى البلاد والضرب فيها طولا ووعرضا عبثا. لقد حصل فى أثناء ذلك علما غزيرا ومعرفة واسعة.

وحانت صلاة المغرب، وصلى الشافعى مع الناس.

وأخذ مالك بيد الشافعى إلى المنزل.

ولكن ماذا رأى الشافعى؟ رأى دارا واسعة فارهة، عليها مظاهر العز والثراء لا علاقة بينها وبين تلك الدار التى رآها آخر مرة كان فيها بالمدينة. إن هذه الدار دار أمير أو ملك.

وبكى الشافعى كما بكى حين عاين دار محمد بن الحسن فى الكوفة.

ولكن ما يبكيك الآن يا شافعى؟ لقد بكيت فى الكوفة رثاء لأهل الحجاز، وإشفاقا على ماهم فيه من جدب وشقاء، والآن ماذا يبكيك بعد أن رأيت مظاهر النعمة الوارفة، والثراء الواسع؟؟

وعلى أى فقد يبكى الإنسان من الفرح كما يبكى من الحزن.

وفطن مالك إلى ما يشغل بال الشافعى ويسيل دموعه، لقد خشى أن يكون أستاذه مالك قد مالت به الدنيا وجرفته إلى تيارها فانساق إليها مغلوبا على أمره، فبادر تلميذه بالكلام يقول له:

هل خفت يا أبا عبد الله أن أكون ممن باع الهدى بالضلالة واشترى بدينه دنياه؟ كلا يا بنى، فإن الذى تراه أمام عينك إنما هو من حلال صرف، ليس به ذرة حرام أوشبهة. إنه من هدايا الأصحاب والأصدقاء، والنبى ﷺ يقول: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»[1].

وقال ﷺ: «من آتاه الله رزقا من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى».

وفى رواية: «من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وإنما هو رزق ساقه الله إليه»[2].

واطمأنت نفس الشافعى وأدرك أن شيخه مازال على الجادة وأن هذا النعيم الذى هو فيه إنما من فيض الله ونعمته. وحمدا لله على ذلك.

مالك يغدق على الشافعى

قال مالك للشافعى: إن لى ثلثمائة خلعة من بز خراسان وقباطى مصر، وعندى عبيد كثير، كل ذلك هدية منى إليك. وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج

(١) اخرجه أحمد عن أنس.

(٢) اخرجه احمد عن ابى هريرة.

زكاتها لك منى نصفها هدية.

جزاك الله خيرا يا مالك، ما أبرك وما أوفاك، وما أكرمك وما أسخاك!!

إن هذا العطاء لا يقدر عليه الملوك، وإن أعطى الملوك لا يعطوا إلا بسبب، ولا يصلوا أحدا إلا بهدف، هم يريدون بعطائهم تأليف القلوب وفك عقال الألسنة لتلهج بالحمد والثناء. ولكن مالكا لا هدف له من وراء عطائه إلا وجه الله. ولا هدف له إلا مراعاة وجه الأخوة ورباط الصداقة والمودة.

قال الشافعى لمالك: إنك موروث وأنا موروث فإن كنت قد أهديت فلابد أن يخرج ما أهديته من ملكك ليكون فى ملكى، فإن حضرنى أجلى كان لورثتى دون ورثتك، وإن حضرك أجلك كان لورثتى دون ورثتك، ولم تغضب هذه الكلمة مالكا، ولكنه قابلها بابتسام، وقال للشافعى: أبيت إلا العلم.

فقال الشافعى: وها هناك ما يستعمل أفضل من العلم؟

واستجاب مالك للشافعى وأخرج كل ما أهداه إلى الشافعى فما بات إلا تحت يده.

وبعد أن صلى مالك والشافعى صلاة الفجر وعادا إلى المنزل وجدا أمام البيت هدايا من جياد خراسان، وبغال فارهة من بغال مصر فاتجه مالك للشافعى يقول له أبشر يا شافعى، فهذا رزق جديد ساقه الله إليك.

وحاول الشافعى أن يبقى مالك لنفسه شيئا من ذلك، ولكنه قال: لقد آليت ألا أمتطى دابة فى مدينة الرسول ﷺ.

الشافعى يتوجه إلى مكة

وتوجه الشافعى بما معه من أحمال إلى مكة بعد أن ودع شيخه.

وأنفذ إلى أمه من يبشرها بقدومه. فاستقبلته هى وقريبات لها وصواحب عزيزات عليها على أبواب مكة.

وجاء موكب الشافعى كأنه موكب ملك، وألقى بنفسه بين أحضان أمه التى

استقبلته بدموعها وأشواقها.

وتبادلته أحضان من معها من النساء اللاتى قلن له: كل فؤاد عليك أم فكان هذا أول كلام سمعه من امرأة فى الحجاز.

وبعد أن انتهت مراسيم هذا الاستقبال، أخذ أهبته لدخول مكة، ولكن أمه استوقفته قائلة: إلى أين يا محمد؟

فقال لها: إلى المنزل يا أماه.

فأجابته قائلة: هيهات هيهات، لقد خرجت من مكة فقيرا معدما، عائلا، لا تملك شيئا، الآن تعود إليها غنيا موسرا مترفا، تملأ ما صغيك بالفخر والتكاثر، وتثنى عطفيك بالزهو والخيلاء على بنى عمك؟

لا يكون ذلك أبدا.

فقال الشافعى: وماذا أصنع يا أماه؟

فقالت: أقم مكانك هنا بالأبطح، وناد فى الناس بإشباع الجائع وكسوة العارى، وحمل المنقطع لتظفر بثناء الدنيا وثواب الآخرة.

ولأن الدنيا لم تكن فى ذهن الشافعى فلم يعترض. ولعل ذلك قد صادف هوى فى نفسه، لقد زهده الله فى الدنيا وأعفه عنها، وإن هذا لهو الزهد الحقيقى الذى يكون قد قدرة وسعة.

كان سليمان النبى عليه السلام، فى يده خزائن الأرض وقد وهب الله له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، ومع ذلك كان يأكل خبز الشعير ويأتدم بالملح، ويقول: أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقير.

وكذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ الذى فتح الله على يديه خزائن كسرى وقيصر وكان يوزع العطاء على كل الناس، ويمد الموائد لهم ليطعمهم اللحم والسمن، ويقنع هو مع ذلك بكسرة من الخبز الجاف والملح الجريش.

ويسأل عن ذلك فيقول: إن الله تعالى نعى على أقوام وحرمهم نعيم الآخرة لأنه

أعطاهم حظهم من ذلك في الدنيا، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

تذكر الشافعى ذلك، فبقى مكانه، وأقبلت إليه وفود الجاذعين والمعوزين والمنقطعين فمازال يعطى ويوزع، حتى نفد كل ما معه من مال وكراع ودواب وثياب.

لم يبق معه إلا خمسون ديناراً. وبغلة امتطى صهوتها، ومضى فى طريقه إلى مكة نحو منزله، وهو يحمد الله تعالى على نعمة توفيقه.

إنه مع توزيع ثروته غنى بالله أولا، وغنى بالعلم الذى حصله حتى ليؤثر أنه قال لأمه ـ فيما سمعته من شيخى الأقدمى رحمه الله ـ حين سألته بماذا جئتنى؟ قال لها: جئتك بملء رحاب الأرض علما.

والعالم العامل بعلمه أغنى الأغنياء، فليس الغنى بالحقيقى بالثروة المالية ولكنه بالرضا والقناعة والعفة، وما أصدق الكلمة الخالدة: «القناعة كنز لا يفنى».

ومضى فى طريقه فوق بغلته وسقط سوطه الذى يقرع به البغلة من يده فناولته إياه أمة من إماء مكة تحمل على كتفها قربة.

ورأى فى عينيها الحاجة، فأعطاها خمسة دنانير من الخمسين التى بقيت معه، فنظرت إليه أمه نظرة ذات معنى. وقالت له: أتكافئ هذه الفتاة الفقيرة المحتاجة على جميل صنعته معك بهذا المبلغ اليسير؟

فأعطاها بقية الخمسين، ودخل مكة خالى الوفاض كما تركها ذات يوم فى طريقه إلى المدينة.

كان قد مضى عليه فى رحلته هذه حوالى عشر سنين أو تزيد، وهى كفيلة بأن تتغير فيها أحوال كثيرة.

وبعد أن استقر به المقام فى بلده أخذ يمارس نشاطه العلمى الذى رحل من أجل تحصيله.

ولكنه لم يطل به المقام فى مكة. فقد كانت أمامه رحلة أخرى ولكنها فى هذه المرة سوف تكون إلى اليمن.

الفصل الخامس

الشافعى فى اليمن

من أسباب التآمر ضده
بين يدى الرشيد
دعاء النجاة
الخليفة ينبهر بعلم الشافعى
مؤلفات فى الفقه الشافعى

الشافعى فى اليمن

تختلف الروايات حول رحلة الشافعى إلى اليمن..

فبينما يروى لنا الربيع المرادى أن الخليفة الرشيد اختاره عاملا فى صدقات نجران.

وقبل الشافعى هذه الوظيفة لأن تبعاتها أخف وأهون من تبعة القضاء، ثم هو لم يشأ أن يرد طلب الخليفة مرتين، لقد اعتذر عن القضاء فكيف يعتذر عن هذه الوظيفة؟

فاتجه إلى اليمن لممارسة مهام وظيفته..

نجد أن هناك رواية أخرى تقول: إن الشافعى ظل موصولا العلاقة والمدة بمالك فى المدينة، يرسل إليه مالك بالمال بين الحين والحين، حتى توفى مالك سنة تسع وسبعين مائة، وانقطع المورد المالى الذى يصل إليه.. ففكر الشافعى فى عمل يرتزق منه. وتصادف أن جاء والى اليمن إلى الحجاز فحادثه بعض القرشيين فى أن يولى الشافعى على عمل فى اليمن فقبل.

وكانت للشافعى دار فى مكة رهنها ليجهز نفسه للسفر.

وسافر إلى اليمن فعلا، وهناك فى نجران بدأ يمارس عمله الموكول إليه فى همة ونشاط وأمانة.

ولكن ما هذا العمل؟ الأرجح أنه عمل يتصل بالقضاء حسبما يتضح بعد، وقد جاء ذلك فى رواية ذكرها أبو نعيم فى حلية الأولياء قال: إن هارون الرشيد ولى مصعب بن عبد الله القضاء باليمن فخرج الشافعى معه على أنه يعينه ويساعده فى عمله(١).

(١) حلية الأولياء ٩/ ٧١.

محنة يتعرض لها

وشاءت الأقدار أن يتعرض الشافعى فى اليمن لمحنة قاسية لم يتوقعها.

أما سبب هذه المحنة فهى المكائد التى يتعرض لها المستقيمون من الناس، من أولئك الذين يستمرئون الفساد ويعيشون فى ظله، ويبدو أن مثل هذا الأسلوب الذى نشاهده فى أيامنا هذه ليس جديدا بل هو أمر له جذور عميقة ممتدة فى التاريخ.

كان الوالى فى اليمن يحب أن يصانعه الناس وينافقوه، ويحب أن يجامله المرءوسون ويتغاضوا عن مخالفته.

وقد استمرأ الوالى من مرءوسيه نفاقهم ومصانعتهم كما استمرأ المرءوسون ذلك ودرجوا عليه حتى أصبح ما يفعلونه هو القياس الذى يجب أن يسير عليه كل موظف ويتخذه مبدأ ومنهجا، أما الصراحة والاستقامة فهما الشذوذ.

ولكن الشافعى صورة أخرى مخالفة لذلك تماما، إنه رجل مبادئ وسلوك نشأ على التقوى والصلاح. وتربى على الصراحة والشجاعة الأدبية، والصدق والوفاء. فهاله ما رأى عليه الناس من سلوك، وشق عليه أن يلمس فى موظفى الدولة سكوتا عن الحق وتقصيرا فى النصح وممارسة للباطل وجهرا بالنفاق والكذب والتسبيح بحمد السلطان.

وهالهم هم أيضا أن يأتى إليهم رجل لا يدين بدينهم ولا يدور فى فلكهم ولا ينهج نهجهم، فقرروا أن يزيحوه من طريقهم، وتواطأ على ذلك الوالي وحاشيته. لقد ضاقوا به ذراعا كما ضاق قوم لوط بلوط وأهله وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦).

ولقد أخبر الشافعى بنفسه عن ذلك قائلا: «كان الوالى إذا أتاهم صانعوه فأرادونى على مثل ذلك فلم يجدوا عندى»[1].

ولكن كيف يتخلصون منه؟ لابد أن يكيدوا له، ويفتعلوا له الخطأ، ويقحموه فى مؤامرة هو برئ منها.

---

(١) الأئمة الأربعة د/ الشرباصى ص ١٢٥.

وحدث أن خرج تسعة من العلويين فى اليمن على خلافة الرشيد، فانتهز الوالى ومن معه الفرصة فاتهموا الشافعى بأنه ضالع معهم.

إنها تهمة ظالمة من غير شك، وهى قائمة على غير أساس، فما كانت أخلاق الشافعى تسمح له بذلك، وما هو بطاعن على السلطان فى شىء، وليس هناك مبررات تسمح له بالثورة على الخليفة أو الانتفاض عليه. بل إن نفسه مطمئنة إلى الخلافة العباسية راضية عنها.

ثم إن سلوكه فى اليمن فوق الشبهات، لقد كان يدأب على طلب العلم، وقد انتهز فرصة وجوده فيها وأخذ يتعرف إلى علمائها يجلس إليهم ويتفقه عليهم، ويتزود من علمهم، فعرف طريقه إلى مطرف بن مازن، وهشام بن يوسف، وعمر بن أبى مسلمة، ويحيى بن حسان، وهؤلاء من الأئمة الأعلام الذين لهم فى قلوب الناس منزلة رفيعة ومكانة عليا.

إن كل ما يؤخذ عليه ـ إن كان يؤخذ ـ أنه كان لا يفرق فى مجلسه إلى العلماء بين عالم وعالم، ، لأنه كان يرى أن العلم رحم بين أهله، لا يعرف التعصب أو التحزب، وقد جلس فى اليمن إلى بعض علماء الشيعة، ولكن أى غضاضة فى ذلك؟ إنه يطلب العلم لا المذهب. وقد جلس إلى بعض الذين يقولون بالإرجاء، فهل يعنى ذلك أنه أصبح مرجئا؟

ولكن الوالى كره إقامة الشافعى فى اليمن لأنه لا يصانعه ولا يمالئه.

كره الوالى الشافعى لعدله واستقامته وتمسكه بالشريعة وإغلاقه باب المجاملة والنفاق والملق.

كيف يقبل الوالى موظفا عنده يقوم فى المسجد ينبه الناس إلى مقاومة الظالم ويلفت أنظارهم إلى أفعال الوالى ومخالفته لأحكام الشريعة، ويوضح لهم أن الحكم المثالى نراه فى سيرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب، وأضرابهما من الخلفاء والأمراء؟؟

وما أسرع أن أرسل الوالى للخليفة أن هناك ثورة توشك أن تشتعل، وأن أحد رءوسها الشافعى ومعه تسعة من العلويين.

وكل شىء يمكن أن يصبح موضع شك عند الحاكم ماعدا الشىء الذى يتعلق بالخروج على الحكم، إن الشك فى هذا الأمر يصبح حقيقة واقعة، وسرعان ما تنسج لها الأدلة والبراهين والبواعث والوسائل.

وطار صواب الخليفة فى بغداد وأرسل بضرورة القبض على هؤلاء وإرسالهم إلى الخليفة مقيدين.

لقد ارتاع الخليفة حين قرأ رسالة واليه على نجران وارتاع أكثر حين قرأ عبارة وردت فى الرسالة حول الشافعى يقول فيها: إن هذا الرجل لا أمر لى معه ولا نهى فهو يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه.

وأسرع الوالى إلى تنفيذ أمر الخليفة، فقبض على الثوار التسعة الذين قيل إنهم من العلويين، وقبض أيضاً على الشافعى، وقيدوا جميعا، وسيقوا فى قيودهم وأغلالهم إلى الرشيد فى بغداد.

من أسباب التآمر ضده

وحدث أبو نعيم الأصفهانى أن من أسباب التآمر على الشافعى ما يحكيه قائلاً: قال الشافعى: وليت نجران وبها بنو الحارث وموالى ثقيف، فجمعتهم فقلت: اختاروا سبعة نفر منكم فمن عدلوه كان عدلا، ومن جرحوه كان مجروحا.

وهذا مثل كامل فى الاحتياط وإبراء الذمة ومراعاة العدل.

قال: فجمعوا لى سبعة نفر منهم، فجلست للحكم، فقلت للخصوم: تقدموا، فكان إذا شهد الشاهدان عندى التفت إلى السبعة، فإن عدلوا الشاهد كان عدلا، وإن جرحوه قلت: زيدونى شهودا.

هكذا كان يفعل فيما يعرض عليه من قضايا، فكان يحق الحق ويبطل الباطل حتى تنفس الناس الصعداء، وفرحوا بإقامة العدل.

ومازال كذلك حتى عـرضت قضية تتعلق بضياع وأمـوال يستغلها من ليس له حق فيها ــ وربما كان الذى يستغلها لنفسه هو الوالى وهى ليست من حقه، وقد انتهز فرصة غياب صاحبها الأصلى فادعاها.

وقد اسـتدعى الشافعـى المستغل ــ أو وكلاءه ــ فـأقروا بأن هذه الضيـاع والأموال ليست لنا، وإنما هى للمنصور بن المهدى فى أيدينا.

قال الشافعى: فقلت للكاتب: اكـتب، وأقر فلان ابن فلان الذى وقع عليه حكمى فى هذا الكتاب: أن هذه الضيعة أو المال حكمت عليـه فيه ليست له وإنما هى للمنصور بن المهدى فى يده.

قال الشافعى: فخرجوا إلى مكة فمازالوا يعملون ــ أى يتآمرون ــ حتى دفعت إلى العراق[١].

بين يدى الرشيد

سبق المتـهمون إلى الرشـيد فى العراق، ووصلـوا بغداد، فكان الرشيـد فى الرقة، فدفعوا إلى الرقة.

ومثلوا بين يدى الرشيد. والشافعى يهمهم بدعوات يبتهل بها إلى الله، وكانت هذه الدعوات هى:

دعاء النجاة

قال الفـضل بين الربيع: قلت للشافـعى ما هذا الدعاء الذى كـنت تدعو به وأنت مسوق الى الرشيد، فأمر بفك قيودك بعد أن قتل من سبقك وهم بقتلك؟

فقال الشافعى: يا فضل، خذ منى واحفظ عنى:

«شـهـد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قـائمـا بالقـسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الـدين عند الله الإسلام ــ وأنا أشهـد بما شهد الله به، وأسـتودع الله

(١) احلية الأولياء ٩/ ٧٦ بتصرف فى العبارة.

هذه الشهـادة، اللهم إنى أعوذ بنور قـدسك وببركـة طهارتك وبعظمـة جلالك من كل عاهة وآفـة، ومن طوارق الليل والنهـار إلا طارقا يطرق بخـير، اللهم أنت غـياثى بك أستـغيث، وأنت مـلاذى بك ألوذ، وأنت عـياذى بك أعـوذ، يا من ذلت له رقـاب الجبابرة، وخضعت له أعناق الفراعنة، أعوذ بك من خزيك ومن كشف سترك، ونسيان ذكرك، والانصراف عن شكرك، أنا فى حـرزك ليلى ونهارى، ونومى وقرارى، وظعنى وأسفـارى وحيـاتى ومماتى، ذكرك شـعارى، وثناؤك دثارى، لا إلـه إلا أنت سبحـانك وبحمدك ـ تشريفـا لعظمتك، وتكريما لسبحات وجـهك، أجرنى من خزيك ومن شر عبـادك، واضرب على سرادقـات حفظك، وأدخلنى فى حفظ عنـايتك وجد على منك بخير يا أرحم الراحمين».

قال الفضل: فكتبتها، وكان الرشـيد كثير الغضب على، فكان كلما هم أن يغضب به فيرضى، فهذا ما أدركت من بركة الشافعى(١).

وقف المتهمون أمام الرشيد، وأخذ يـوجه إلى كل منهم التهمة التى اتهم بها وسيق من أجلها إليـه، ثم يحكم عليه بالقتل قبل سـماع دفاعه، وهكذا طاحت رقـاب ثمانية منهم ـ والشافعى ينظر إليهم واحدا واحدا.

وجاء التاسع فألقى الرشـيد عليه التهمة، فأنكرها، ولكن الرشيـد أمر بقتله، فقال الفتى المحكوم عليه بالإعدام، يا أمير المؤمنين اقـتلنى، ولكن أمهلنى لحظات أكتب فيها رسالة لأمى وهى فى المدينة.

ولكن الرشيد لم يجب طلبه، وأمر بقتله.

لقد تملكه الغضب وسيطر عليه، ولم يختلج قلبه بخلجة رقة لهذا الفتى الذى أراد أن يتوسل أمامه بعاطفة الأمومة ليـمهله بعض الوقت يكتب فيها كلمات يودع بها أمه، وطاحت رقبته كما طاحت رقاب الثمانية قبله.

كل هذا والشـافعى واقف مـغلول اليدين، والسـاقين، أشـعث أغيـر إلا أنه ثابت القلب مطمئن النفس، كأن شيئا لم يحدث.

---

(١) حلية الأولياء ٩/ ٧٦.

ولئن أردنا أن نضرب المثل بأشجع الشجعان لما وجدنا خيرا من الشافعى فى موقفه هذا، إنه محكوم عليه بالموت دون دفاع عن نفسه، والأمر جد لا هزل فيه، تشهد له هذه الدماء الجارية، والرءوس الطائحة والأجساد الهامدة، والسيوف المسلولة، والنطاع الممددة، وذلك الغضب البادى على وجه خليفة حاكم بأمره، حوله حرس شداد، وموت بالمرصاد.

وأخيرا جاء الدور على الشافعى. نظر الرشيد إلى الشافعى نظرة كلها حنق وغيظ، وكأن الرشيد أراد أن ينهى هذا المشهد الدامى ليستريح. ولكن الشافعى بادر الرشيد قبل أن ينطق بكلمة فقال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته».

فلم يملك الرشيد إلا أن يرد السلام، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها، ورددنا عليك فريضة قائمة بذاتها، ومن العجيب أن تتكلم فى مجلس بغير أمرى».

ونلاحظ أن الشافعى فى سلامه أسقط «رحمة الله» ولكن الرشيد أضافها فى رده، وكان الشافعى يقصد إلى هذا.

فقال الشافعى: إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥). وهو الذى إذا وعد وفى، فقد مكنك فى أرضه، وأمننى بعد خوفى، حيث رددت على السلام بقولك: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» فقد شملتنى رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين.

وكانت هذه الكلمات من الشافعى مؤذنة بانحلال عقدة الغضب فى نفس الرشيد فقد بدأ يتحدث بكلام خال من الحدة والعنف، الذى كان مسيطرا عليه قبل ذلك.

قال الرشيد مخاطبا الشافعى: وما عذرك من بعد أن ظهر أن صاحبك ــ يريد بذلك الثائر العلوى ــ الذى طغى علينا وبغى واتبعه الأرذلون، وكنت أنت الرئيس عليهم؟

قال الشافعى: أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف، لكن

الكلام مع ثقل الحديد صعب، فإن جدت على بفكه أفصحت عن نفسى، وإن كانت الأخرى فيدك العليا، ويدى السفلى والله غنى حميد.

وهنا لانت عريكة الرشيد، وانطفأ غضبه، فأمر بكل الحديد وأجلسه.

قال الشافعى: حاشا لله يا أمير المؤمنين أن أكون ذلك الرجل الذى وصفت، لقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦).

لقد أفك المبلغ فيما بلغك، وإن لى حرمة الإسلام، وذمة النسب، وكفى بهما وسيلة، وأنت أحق من أخذ بكتاب الله تعالى ـ أنت ابن عم رسول الله ﷺ ـ الذائد عن دينه، المحامى عن سنته.

وأنا يا أمير المؤمنين لست بطالبى ولا علوى، وإنما أدخلت فى القوم بغيا على، وأنا رجل من بنى المطلب بين عبد مناف، أنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن السائب. فقاطعه الرشيد: أنت محمد بن إدريس؟ وكأن الرشيد تذكر موقفه السابق معه.

قال الشافعى: نعم، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه، والقاضى يعرف ذلك، ونظر إلى محمد بن الحسن.

وكان محمد بن الحسن يجلس بجوار الرشيد، فقال الرشيد: ما ذكرك لى محمد بن الحسن، ثم التفت إلى القاضى وسأله: يا محمد ما يقول هذا ـ أهو كما يقوله؟

فقال محمد: إن له من العلم شأنا كبيرا، وليس الذى رفع عليه من شأنه.

قال الرشيد: فخذه حتى أنظر فى أمره.

وهكذا نجا الشافعى.

الخليفة ينبهر بعلم الشافعى

لقد كان الشافعى لبقا فى دفاعه عن نفسه، وفى بعض الروايات أن الشافعى قال للرشيد: مهلا يا أمير المؤمنين، فإنك الداعى وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد

منى، ولست القادر على ما أريد منك، يا أمير المؤمنين، ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه، والآخر يرانى عبده، أيهما أحب إلى؟

فقال الرشيد: الذى يراك أخاه.

قال الشافعى: فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد على ونحن ولد المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم، وهم يروننا عبيدهم.

وهنا يهدأ الرشيد، ويسرى عنه، ويستوى جالسا، وتبدأ محاورة علمية طريفة تشهد بموهبة الشافعى العلمية، ومقدرته المعرفية.

جاء فى حلية الأولياء(١): أن أمير المؤمنين جمع فى مجلسه بين الشافعى وبين بشر المريسى، وقال بشر للرشيد: يا أمير المؤمنين، دعنى وإياه، فقال هارون: شأنك وإياه.

بدأ بشر الحوار فقال للشافعى: أخبرنى ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟

فقال الشافعى: يا بشر ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم، إلا أنه لا بدلى أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت.

الدليل على أن الله واحد: اختلاف الأصوات فى المصوت إذا كان المحرك واحدا دليل على أنه واحد.

وعدم الضد فى الكمال على الدوام دليل على أنه واحد.

وأربع نيرات مختلفات فى جسد واحد، متفقات على ترتيبه فى استفاضة الهيكل دليل على أن الله تعالى واحد.

وأربع طبائع مختلفات فى الخافقين أضداد غير أشكال، مؤلفات على إصلاح الأحوال دليل على أن الله تعالى واحد.

وعدم الضد فى الكمال على الدوام دليل على أنه واحد.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى

(١) يرى بعض الرواة أن الشافعى لم يجتمع مع بشر فى مجلس الرشيد، وقد نقلنا الخبر عن الحلية ٩/ ٨٣.

الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

كل ذلك دليل على أن الله تعالى واحد لا شريك له.

قال بشر: وما الدليل على أن محمدا ﷺ رسول الله؟

قال الشافعى: الدليل على ذلك القرآن المنزل، وإجماع الناس عليه، والآيات التى لا تليق بأحد غيره، وتقدير المعلوم فى كون الإيمان بدليل واضح دليل على أنه رسول الله، لا بعده مرسل يعزله.

وامتحانك إياى بهذين السؤالين، وقصدك إياى بهما دون فنون العلوم دليل على أنك حائر فى الدين، تائه فى الله - عز وجل - ولو وسعنى السكوت عن جوابك لاخترته.

قال بشر: ادعيت الإجماع، فهل تعرف شيئا أجمع الناس عليه؟ قال الشافعى: نعم، أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين، فمن خالفه قتل.

فضحك، هارون الرشيد.

ثم انبسط الشافعى فى الكلام فتكلم بكلام حسن، فأعجب به الرشيد وقربه من مجلسه.

قال الرشيد للشافعى: كيف بصرك بكتاب الله تعالى؟

فقال الشافعى: عن أى كتاب تسألنى؟ إن الله سبحانه وتعالى أنزل ثلاثة وسبعين كتابا على خمسة أنبياء، وأنزل كتابا موعظة لنبى وحده فكان سادسا، أولهم آدم عليه السلام وعليه أنزل ثلاثين صحيفة كلها أمثال، وأنزل على أخنوخ وهو إدريس عليه السلام ست عشرة صحيفة كلها حكم، وفيها علم الملكوت الأعلى، وأنزل على إبراهيم عليه السلام، ثمانى صحف كلها حكم مفصلة، فيها فرائض ونذر، وأنزل على موسى عليه السلام -

التوراة كلها تخويف وموعظة، وأنزل على عيسى عليه السلام الإنجيل ليبين لبنى إسرائيل ما اختلفوا فيه من التوراة، وأنزل على داود عليه السلام كتابا كله دعاء وموعظة لنفسه حتى يخلصه به من خطيئته.

وأنزل على محمد ﷺ الفرقان وجمع فيه سائر الكتب فقال: ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ (النحل: ٨٩). ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (هود: ١).

فقال له الرشيد: قصدى كتاب الله الذى أنزله على ابن عمى رسول الله ﷺ الذى دعانا إلى قبوله، وأمرنا بالعلم بمحكمه والإيمان بمتشابهه.

فقال الشافعى: عن أى آية تسألنى؟ أعن محكمه أو متشابهه؟ أم تقديمه وتأخيره؟ أم ناسخه ومنسوخه؟ أم عما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته أم تثبتت تلاوته وارتفع حكمه؟ أم عما ضربه الله مثلا، أم عما ضربه الله اعتبارا؟ أم عما أحصى فيه فعال الأمم السالفة، أم ما قصدنا الله به من فعله تحذيرا؟

قال الرشيد: ويحك يا شافعى، أفكل هذا يحيط به علمك؟

قال: يا أمير المؤمنين، المحنة على القائل كالنار على الفضة، تخرج جودتها من رداءتها، فهأنذا يا أمير المؤمنين فامتحن.

فقال الرشيد: ما أحسن ما قلت، وسأسئلك عنه بعد هذا المجلس إن شاء الله.

ثم قال الرشيد: وكيف بصرك بسنة رسول الله ﷺ؟

قال الشافعى: أعرف ما يخرج على وجه الإيجاب ولا يجوز تركه، كما لا يجوز ترك ما أوجبه الله تعالى فى القرآن، وما خرج على وجه التأديب، وما خرج الخاص لا يشرك فيه العام، وما خرج على وجه العموم يدخل فيه الخصوص، وما خرج جوابا عن سؤال سائل ليس لغيره استعماله، وما خرج منه ابتداء لازدحام العلوم فى صدره، وما فعله فى خاصة نفسه، واقتدى به الخاصة والعامة، وما خص به نفسه دون الناس كلهم مع ما لا ينبغى ذكره، لأنه أسقطه عليه السلام عن الناس قال الرشيد: أخذت الترتيب يا شافعى لسنة رسول الله ﷺ فأحسنت موضعها لوصفها، فما حاجتنا إلى التكرار

عليك، ونحن نعلم ومن حضرنا أنك حامل نصابها مقلا بها؟

فقال الشافعى: ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وإنما شرفنا برسول الله ﷺ فيك.

قال الرشيد: كيف بصرك بالعربية؟

قال الشافعى: هى مبدؤنا وطباعنا بها قومت، وألسنتنا بها جرت، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة، وكذلك العربية لا تسلم إلا لأهلها، ولقد ولدت وما أعرف اللحن، فكنت كمن سلم من الداءم ما سلم له الدواء، وعاش بكامل الهناء، وبذلك شهد لى القرآن ـ قال تعالى ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤) يعنى قريشا وأنت وأنا منهم يا أمير المؤمنين، والعنصر نظيف، والجرثومة منيعة شامخة، أنت أصل ونحن فرع، وهو ﷺ مفسر ومبين، به اجتمعت أحسابنا، فنحن بنو الإسلام، وبذلك ندعى وننسب.

فقال له الرشيد: صدقت، بارك الله فيك.

ثم قال له: كيف معرفتك بالشعر؟

قال الشافعى: إنى لأعرف طويله وكامله، وسريعه ومجتثه، ومنسرحه.

الإمام السيوطى

ومن العلماء الأئمة المجتهدين الذين تقلدوا مذهب الإمام الشافعى وناصروه ثم اجتهدوا فيه، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى.

هو الإمام الحافظ إمام المجتهدين والمجددين فى عصره أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب ابن محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى.

ولد أبوه باسيوط ـ ومن هنا جاءت نسبته ـ أما هو فقد ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ بالقاهرة وتعلم، وكانت نشأته فى بيت علم وتقوى.

وتتلمذ لكثير من الشيوخ الأجلاء فى عصره، وقد ترجم السيوطى لنفسه ترجمة وافية تناولت مختلف مؤلفاته فى كتابه «حسن المحاضرة».

كان شيخه فى الفقه الإمام المجتهد شيخ الإسلام علم الدين البلقينى لازمه ولازم ولده من بعده، وأجازه بالتدريس والإفتاء وحضر له درسه حين بدأ بالتدريس وأثنى عليه.

وللسيوطى مؤلفات فى الفقه الشافعى منها: الأزهار الغضة فى حواشى الروضة، والحواشى الصغرى، ومختصر الروضة، ومختصر التنبيه، والأشباه والنظائر، وتشنيف الأسماع بمسائل الإجماع، والجامع فى الفرائض، وغير ذلك من المؤلفات.

كان السيوطى دائرة معارف له فى كل فن مؤلف وأكثر، وقد بلغ مرتبة الاجتهاد قال عنه الحافظ التيجانى: لا شك أن الحافظ السيوطى من المجددين، ويصح أن يكون فى عصره غيره من المجددين، وقال أبو الحسنات محمد بن عبد الحى اللكنوى فى حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطى: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة، تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره، وأنه حقيق أن يعد من مجددى الملة المحمدية فى بدء المائة العاشرة.

توفى السيوطى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ودفن بالقاهرة فى القرافة المواجهة لمسجد السيدة عائشة ــ ﵂ ــ فى ضريح مقام فى شارع يحمل اسمه وفوقه لوحة تحمل اسمه.

هناك علماء لا حصر لهم كان لهم أثر مشهود فى الفقه الشافعى ولهم مؤلفات عظيمة فى هذا المذهب.

مؤلفات فى الفقه الشافعى

ومن أهم هذه المؤلفات كتاب «الروضة فى الفروع» للإمام النووى.

واسمه: روضة الطالبين وعمدة المتقين.

مؤلفه: الإمام محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة ست

وسبعين وستمائة.

ولهذا الكتاب عناية كبرى من جانب علماء الشافعية، فقد أقبلوا على تهذيبه واختصاره وقد هذبه النووى نفسه، واختصره كثير من العلماء.

ومن هذه المختصرات: مختصر الشيخ برهان الدين إبراهيم بن موسى الكركى الشافعى المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة.

وقد شرح كثير من العلماء أيضا كتاب الروضة، وعلقوا عليه، ونظموه شعرا وهذا يدل على أهمية هذا الكتاب بالنسبة للفقه الشافعى.

ومن هذه الكتب أيضا:

كتاب الوجيز فى الفروع

وقد ألف هذا الكتاب الإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة خمس وخمسين أخذه من البسيط والوسيط له، وزاد فيه أمورا وهو كتاب جليل يعد عدة فى الفقه الشافعى..

وقد اعتنى به الأئمة فشرحه الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستمائة والقاضى سراج الدين أبو الثناء المتوفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة، والإمام أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى الشافعى المتوفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة وغيرهم من العلماء.

كتاب المهذب فى الفروع

ومن كتب الفقه الشافعى أيضاً كتاب المهذب فى الفروع للشيخ الإمام أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازى المتوفى سنة ست وسبعين وأربعمائة، بدأ فى تصنيفه سنة خمس وخمسين وأربعماذة، وفرغ منه سنة تسع وستين وأربعمائة.

وهو كتاب جليل القدر، اعتنى به فقهاء الشافعية، وشرحوه وأول من شرحه أبو إسحاق إبراهيم بن منصور العراقى المتوفى سنة ست وتسعين وخمسمائة فى عشرة أجزاء، ثم شرحه الإمام ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى الهدايات المتوفى سنة

اثنتين وأربعين وستمائة فى عشرين مجلدا.

ثم شرحه النووى المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة وبلغ فيه إلى كتاب الربا، وأكمله بعده الشيخ تقى الدين السبكى المتوفى سنة ست خمسين وسبعمائة، فلم يوافق الأصل وأتمه غيره.

واختصره كثير من العلماء وعلقوا عليه بحواشى مفيدة، مما يدل على منزلة هذا الكتاب وأثره.

كتاب التنبيه

ومنها كتاب التنبيه فى فروع الشافعية للشيرازى أيضا، وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية كما صرح بذلك النووى فى تهذيبه امتدحه بعض الشعراء بقوله:

يا كوكبا ملأ البصائر نوره　　من ذا رأى لك فى الأنام شبيها
كانت خواطرنا نياما برهة　　فرزقن من تنبيهه تنبيها

وقد شرحه كثير من العلماء ذكرهم حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وذكر اسماء هذه الشروح، كما اختصره جماعة منهم، ونظمه شعرا بعضهم، وهذا يدل على أهمية هذا الكتاب وفضله.

والحديث عن مؤلفات العلماء فى الفقه الشافعى يطول، وقد أفرد صاحب كشف الظنون ثبتا بهذه المؤلفات حرره على ترتيب الحروف الهجائية، أورد فى كل حرف عدة مؤلفات.

وعلق على ذلك ببيان الفرق بين مذهب الشافعى القديم والجديد فقال: إذا أطلق القديم يراد به ما صنفه الشافعى بالعراق مثل كتاب «الحجة» وهو مجلد ضخم قاله فى المهمات، وكذلك ما أفتى به، ورواة القديم جماعة ـ منهم أبو ثور، والزعفرانى ـ وهو أثبت الرواة ـ والكرابيسى، وأحمد بن حنبل.

وإذا أطلق الجديد فالمراد به ما صنفه أو أفتى بـه فى مصر، وهو يشتمل على كتب كثيـرة، ورواة المذهب الجديد أشهرهم تسـعة هم البويطى، الربيع بن سليمـان الجيزى، والربيع بن سليمان المرادى المؤذن، وهو المراد عند الإطلاق، وهو الذى بوب كتاب الأم فنسب إليه، وحرملة، والحميدى، ومحمـد بن عبد الحكم، والمزنى، ويزيد بعضهم عبد الله بن عبد الحكم.

الفصل السادس

فقه الشافعى ومؤلفاته

الأسس التى يقوم عليها الفقه الشافعى
علم أصول الفقه
موضوع كتابة الرسالة
الأسلوب الحوارى
من مؤلفات الشافعى
مفهوم الاستصحاب
مؤلفات الشافعى فى الحديث
وفاته رضى الله عنه

فقه الشافعى ومؤلفاته

الأسس التى يقوم عليها الفقه الشافعى

يقوم الفقه الشافعى على أصول لم يغفل بعضها أصحاب المذاهب السابقة فالكتاب والسنة أصلان أساسيان فى فقه الأحناف والمالكية.

والقياس عول عليه الأحناف، وسار المالكية فيه بقدر.

والإجماع قصد به المالكية عمل أهل المدينة.

ولكن الفقه الشافعى يقوم على هذه المبادئ الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وقد أضاء الشافعى المصابيح حول هذه الأصول بما وضعه من فن «أصول الفقه» وهو فن لم يسبق إليه، وكتب فى ذلك كتاب اسمه «الرسالة».

كان الإمام عبد الرحمن بن مهدى ويكنى أبا سعيد، وكان ثقة كثير الحديث، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وتوفى بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة[١] قد كتب للشافعى وهو بمكة أن يرسل رسالة يوضح له فيها معانى القرآن ويجمع فنون الأخبار فيه وحجية الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب «الرسالة» وقد أعاد الشافعى كتابة الرسالة بعد مجيئه إلى مصر. وقد اختفى هذا المخطوط من دار الكتب المصرية كما نشرت الصحف تبلى أختفى كثير من المخطوطات فإلى الله المشتكى.

ذلك أن الإمام الشافعى كانت له بعض آراء فقهية غيرها بعد مجيئه إلى مصر.

(١) الطبقات الكبرى ٧/ ٣٣٠.

وموضوع الرسالة هو موضوع أصول الفقه الذى أصبح فيما بعد علما قائما بذاته، يدرس فى الكليات المتخصصة، ويعنى به أهل الفقه والقانون، ومعنى ذلك أن الشافعى هو مبتكر هذا الفن.

علم أصول الفقه

جاء فى الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية نقلا عن مصادر مختلفة:

أصول الفقه هو العلم بالقواعد التى يتوصل بها إلى الفقه، وعلم أصول الفقه هو علم يتعرف منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية اليقينية.

وموضوعه: الأدلة الشرعية الكلية من حيث إنها كيف تستنبط منها الأحكام الشرعية.

ومبادؤه مأخوذة من العربية وبعض العلوم الشرعية، كأصول الكلام والتفسير والحديث، وبعض العلوم العقلية.

والغرض منه تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة أعنى الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وفائدته استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة.

والحوادث وإن كانت متناهية فى نفسها بانقضاء دار التكليف، إلا أنها لكثرتها وعدم انقطاعها ما دامت الدنيا غير داخلة تحت حصر الحاصرين، فلا تعلم أحكامها جزئيا، ولما كان لكل عمل من أعمال الإنسان حكم من قبل الشارع منوط بدليل يخصه جعلوها قضايا موضوعاتها أفعال المكلفين، ومحمولاتها أحكام الشارع من الوجوب وأخوته، فسموا العلم المتعلق بها الحاصل، من تلك الأدلة فقها، ثم نظروا فى تفاصيل الأدلة والأحكام وعمومها، فوجدوا الأدلة راجعة إلى الكتاب والسنة والرجماع والقياس، ووجدوا الأحكام راجعة إلى الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة وتأملوا فى كيفية الاستدلال بتلك الأدلة على تلك الأحكام إجمالا من غير نظر إلى تفاصيلها إلا على طريق التمثيل، فحصل لهم قضايا كلية متعلقة بكيفية الاستدلال بتلك

الأدلة على الأحكام إجمالا، وبيان طرفه، وشـرائطه ليتوصل بكل من تلك القضايا إلى استنبـاط كثيـر من تلك الأحكام الجزئيـة عن أدلتهـا التفصـيلية، فضـبطوها، ودونوها وأضافوا إليها من اللواحق، وسموا العلم المتعلق بها أصول الفقه.

وهذا العلم فرع لعلم أصـول الدين، فكان من الضررة أن يقع التصنيف فـيه على اعتقاد مصنف الكتاب. .

وقال ابن خلدون فى مقدمته: أصول الفـقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة، وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف، وأصول الأدلة الشـرعية هى الكـتاب الذى هو القرآن، ثم السنة المبـينة له، فعلى عـهد النبى ﷺ كـانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليـه من القرآن، ويبـينه بقوله وفـعله بخطاب شـفاهى لا يحـتاج إلى نقل ولا إلـى نظر وقيـاس، ومن بعده تعـذر الخطاب الشفاهى، وإن حفظ القرآن بالتواتر.

وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب العلم بما يصل إلينا منها قولا وفـعلا بالنقـل الصحيـح الذى يغلب على الظن صدقـه، ثم ينزل الإجمـاع منزلة الكتاب والسنة، لإجمـاع الصحابة على النكير على مخـالفيهم، ولا يكون ذلك إلا عن مستنـد، لأن مثلهم لا يتفقـون من غير دليل ثابت مع شهـادة الأدلة بعصمة الجـماعة، فصار الإجماع دليلا ثابتا فى الشرعيات.

ثم نظرنا فى طرق اسـتدلالات الخلف والسلف بالكـتاب والسنة فـإذا هم يقيـسون الأشباه بالأشباه منهما، ويناظرون الأمثـال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك، فإن كثيرا من الواقعات بعده ﷺ لم تندرج فى النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه بشروط فى ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين، حتى يغلب عـلى الظن أن حكم الله تعالى فيـهما واحد، وصـار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم عليه هو القياس وهو رابع الأدلة.

واتفق جـمهور العلمـاء على أن هذه هى أصـول الأدلة، وإن خالف بعضـهم فى الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ.

كان أول من ألف فى هذا الفن كما سبقت الإشارة ـ هو الإمام الشافعى، وفتح الطريق لمن جاء بعده، فألفت فيه كتب لا حصر لها.

كان الشافعى قد تحدث فى رسالته عن الأوامر والنواهى والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضا كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية(١).

موضوع كتاب الرسالة

يدور موضوع الكتاب بعد مقدمتها على:

❖ الحديث عن البيان، والمقصود به البيان الدينى، الذى يبين الله للناس ما افترضه عليهم من الفرائض، وما نهاهم عنه من نواه، وكذلك ما جاءت به السنة الشريفة فى ذلك.

من الفرائض ما جاء نصا ـ كالصلاة والزكاة والصيام والحج.

ومن النواهى ما جاء نصا كذلك ـ كتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ومن الفرائض ما جاءت مجملة فى القرآن الكريم، ثم فصلها النبى ﷺ بسنته. كالصلاة مثلا فقد نزل فرضها مجملا، ثم فصلها النبى ﷺ بقوله: «صلوا كمل رأيتمونى أصلى».

وتحدث فى رسالته عن الناسخ والمنسوخ، وقال: إن القرآن قد نسخه القرآن ولا تنسخه السنة، إلا أن السنة قد تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن، والسنة تنسخها السنة، واستشهد على نسخ القرآن بالقرآن بقوله تعالى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾

(الرعد: ٣٩)

وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ **(يونس: ١٥)**.

ومن أبواب الرسالة باب العلم، وذكر فيه أن العلم ـ علم عامة لا يسع المسلم المكلف جهله مثل الصلوات الخمس وصوم رمضان وزكاة النصاب وحج المستطع ـ

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية د/ فاطمة المحجوب ٥/ ٢٢٨ وما بعدها.

وعلم خاصة وهو ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثره نص سنة، وإن كانت فى شىء منه سنة فإنما هى من الأخبار الخاصة لا أخبار العامة، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا.

وهذه درجة من العلم ليست مبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة.

وأفاض فى رسالته فى شرح مفهوم العلم ودلالته، ثم تحدث بعد ذلك عن الإجماع، ثم عن القياس وذكر حجية كل منهما.

فقال عن الإجماع: أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله ﷺ فكما قالوا إن شاء الله، وأما ما لم يحكوه فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله ﷺ واحتمل غيره، فكنا نقول بما قالوا اتباعا لهم، ونعلم أنه إذا كانت سنن رسول الله ﷺ لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ﷺ ولا على خطأ إن شاء الله.

ثم ذكر دليلا فقال ـ عن سفيان: أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال: إن رسول الله ﷺ قام فينا كمقامى فيكم فقال: «أكرموا أصحابى ألا فمن سره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد».

قال الشافعى: وليس المقصود من الاجتماع اجتماع الأبدان لأنه لا يصنع شيئا، وإنما المقصود العمل بما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.

وقال عن القياس:

هل القياس هو الاجتهاد أم هما مفترقان؟ وأجاب بأنهما اسمان لمعنى واحد، فكل ما نزل بمسلم فقيه حكم لازم، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة وعليه اتباعه إذا كان فيه بعينه حكم، وإذا لم يكن فيه حكم بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد، والاجتهاد هو القياس.

إلا أن شرط الذى يقبس ـ أى يجتهد ـ أن يكون عالما بأحكام الكتاب الحكيم فرضه، وندبه، وناسخه، ومنسوخه، وعامه، وخاصه، وإرشاده، ويستدل على ما

يحتمل التأويل منه بسنن رسول الله ﷺ فإن لم يجد سنة فبإجماع المسلمين فإن لم يكن بإجماع فبالقياس.

ولا يصح له أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب.

ولا يصح لأحد أن يقيس إلا إذا كان صحيح العقل، يعرف الفرق بين المشتبه، وعليه ألا يتعجل القول، بل يثبت، وعليه ألا يمتنع عن الاستماع ممن خالفه.

الأسلوب الحوارى

والشافعى يلجأ فى رسالته إلى الأسلوب الحوارى، وهو أسلوب يبعث على التشويق والمتابعة.

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى باب القياس:

تمثل صاحباً يحاوره. فقال هذا الصاحب: فمن أين قلت يقال بالقياس فيما لا كتاب فيه ولا سنة ولا إجماع؟ أفى القياس نص خبر لازم؟

فرد عليه الشافعى بقوله ـ قلت: لو كان فى القياس نص كتاب أو سنة قيل فى كل ما كان نص كتاب: هذا حكم الله، وفى كل ما كان نص سنة: هذا حكم رسول الله ﷺ ولم نقل له: قياس.

قال: فما القياس؟ أهو الاجتهاد أم هما مفترقان؟

قلت: هما اسمان لمعنى واحد.

قال: فما جماعهما؟

قلت: كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة، وعليه إذا نزل فيه بعينه حكم وجب اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد، والاجتهاد القياس.

وهكذا يمضى فى مثل هذا الأسلوب الحوارى الذى يشد اهتمام القارئ ويصل به

إلى درجة الاقتناع بما يقول ويقرر.

لقد أجمع الناس على استحسان هذه الرسالة والإعجاب بها. أطلق عبد الرحمن بن مهدى الذى حررت له الرسالة على الشافعى بعد أن قرأها لقب ناصر السنة وقال: لما نظرت الرسالة للشافعى أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح[1].

وقال المزنى عنها: قرأت الرسالة خمسمائة مرة ما من مرة إلا استفدت منها فائدة جديدة، وقال أيضا أنا أنظر فى الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أنى نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته[2].

إنها كما يقول د/ مصطفى الشكعة: علم جديد فى سماء المعرفة الإسلامية، وهى عمل فقهى حديثى قلما يتوافر له مثيل من حيث المنهج أو المحتوى أو طريقة معالجة القضايا وأسلوب استنباط الأحكام.

من مؤلفات الشافعى

الشافعى موسوعة علمية له مؤلفات شامخة فى مختلف الميادين، وقد عرفنا أنه أول من وضع علم أصول الفقه فى كتاب الرسالة التى ذكرناها.

وإلى جانب غلبة الفقه على الشافعى فهو أيضا صاحب حديث، يقول د/ مصطفى السباعى عنه: للشافعى ـ عدا مكانته الفقهية ـ مكانة ممتازة عند أهل الحديث، فهو الذى وضع قواعد الرواية، ودافع عن السنة دفاعا مجيدا، وأعلن رأيه الذى يخالف فيه مالكا وأبا حنيفة وهو أن الحديث متى صح بالسند المتصل إلى النبى ﷺ يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك، أو بالشروط المتعددة التى اشترطها أبو حنيفة.

وبذلك كان فى جانب أهل الحديث مما جعلهم يطلقون عليه لقب «ناصر السنة» وفى الحق أن «رسالته» وبحوثه فى «الأم» من أثمن ما ألفه العلماء دفاعا عن حجية السنة ومكانتها فى التشريع بأسلوب قوى جل أدلة دامغة قاهرة.

(١) الأئمة الأربعة د/ مصطفى الشكعة ص ٦٤٧.

(٢) الأئمة الأربعة د/ أحمد الشرباصى ص ١٢٦.

ولا ينكر كل من كتب فى مصطلح الحديث وفى مباحث السنة والكتاب من علماء الأصول أنه مدين للشافعى فيما كتب، ومن هنا كان صحيحا ما يقوله محمد بن الحسن: «أن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى» وما قال الزعفرانى: «كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهم الشافعى».

ومن هنا أجله علماء الحديث وذكروه بخير فقال فيه أحمد بن حنبل:

«ما أحد مس بيده محبرة ولا قلما إلا وللشافعى فى رقبته منة» ويقول: «ما علمنا المجمل من المفسر، ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالسنا الشافعى».

وقال الكرابيسى: «ما كنا ندرى ما الكتاب ولا السنة حتى سمعناه من الشافعى وما رأيت مثل الشافعى، ولا رأى الشافعى مثل نفسه، وما رأيت أفصح منه وأعرف».

وكانت أصول مذهب الشافعى مبنية على أصول مذهب الإمامين السابقين ـ العمل بالكتاب والسنة والقياس والإجماع إلا أن عمل الشافعى بالسنة كان أوسع دائرة منهما، وذلك من ناحية الأخذ بحديث الآحاد، وكان أضيق دائرة من ناحية رفض العمل بالمرسل إلا إذا كان مرسل كبار التابعين. كسعيد بن المسيب مثلا.

ومن الأصول التى اعتمد عليها الشافعى: الاستصحاب وقد أخذ به أبى حنيفة فى الدفع لا فى الإثبات[1].

مفهوم الاستصحاب

والاستصحاب فى اللغة الدعوة إلى الصحبة والملازمة.

وفى اصطلاح الفقهاء الاستصحاب أحد منابع الأحكام الاجتهادية، وهو استبقاء الحكم الثابت فى الزمن الماضى على ما كان عليه حتى يقوم دليل على تغيره، فإذا سئل المجتهد عن حكم عقد من العقود، ولم يجد دليلا على شرعيته حكم بإباحته، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة، فمثلا إذا توضأ المسلم ثم شك فى انتفاض الوضوء بقى له

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى د/ مصطفى السباعى ص ٤٠٠.

حكم المتوضيء استصحابا لما ثبت من قبل بيقين، واليقين لا يزول بالشك، قال الأسنوى فى شرحه على منهاج البيضاوى وهما من علماء الشافعية ـ الاستصحاب: هو الحكم بثبوت أمر فى الزمن الثانى بناء على ثبوته فى الزمن الأول، كاستدلال الشافعية على أن الخارج من غير السبيلين لا ينقض الوضوء بأن الشخص كان على الوضوء قبل خروجه إجماعا، فبقى على ما كان عليه[1].

مؤلفات الشافعى فى الحديث

ولم ينقل عن الشافعى كتاب مستقل فى الحديث إلا «مسنده» رواية أبى العباس الأصم «وسنن الشافعى» رواية الطحاوى، ويظهر أنه من استخراج تلاميذه لا من تأليفه.

وقد جاء فى كشف الظنون تعليق على مسند الشافعي، جاء فيه:

مسند الشافعى ـ المتوفى سنة ٢٠٤ ـ رتبه الأمير سنجر بن عبد الله علم الدين الجاولى المتوفى فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وشرحه فى مجلدات.

وشرحه أيضا أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ست وستمائة وسماه: كتاب «شافى العى» فى شرح مسند الشافعى فى خمسة مجلدات.

وانتخبه الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبى وسماه، «المنتخب المرضى من مسند الشافعى».

وجمع مسنده أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الأصم الشافعى المتوفى سنة ست وأربعين وثلثمائة.

وشرحه الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى عقب الشرح الكبير، وتوفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

---

(١) الموسوعة الذهبية ٤/ ٢٦٠.

وفاته رضى الله عنه

مرض رحمه الله بالبواسير، وكان يعانى من تعصب بعض أتباع المالكية وتآمرهم عند الحكام، وأمره المأمون بتولى القضاء فدعى الشافعى على نفسه بالموت.

وقالوا أن أحد الناس ضربه بحديدة على رأسه.

وكان الشافعى على مرض أرسل إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها لتدعو له فكان يبرئ من مرضه ببركة دعائها رضى الله عنها.

وكانت وفاة الشافعى ﷺ يوم الجمعة آخر يوم فى رجب سنة أربع ومائتين، ودفن بعد العصر فلم يوحه بالقرانة الصغرى، قال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعى فى المنام بعد موته فقلت:

يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟

فقال: أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب[1].

رحمه الله ورضى عنه.

(١) وفيات الأعيان لابن خلمان ٢/ ٢١٤.

الفهـــرس

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس